



الهيئة العامة
لقصور الثقافة

244



أصوات
أدبية

لحظات غرق جزيرة الحوت

**** معرفتي ****
محمد المخزنجي

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com



الحفظات غرق بجزيرة الصوت

محمد المخزنجي

244

اصوات ادبية

me3refaty.blogspot.com

القاهرة - رقم بریدی : 11531

二、三、四

رئيس مجلس الإدارة
د. مصطفى الرزاز
المشرف العام على النشر
علي أبو شادي
أمين عام النشر
محمد كشيك

رئيس التحرير
محمد البساطي
مدير التحرير
شحاتة العريان



**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

وها أنذا. بعد سنوات. أجدنى فى مواجهة هذين النصّين " فصول تشرنوبيل الأربعة " الذى وُلِدَ مع الانهيار المدوّى لذلك المفاعل الشهير عام ١٩٨٦. و"طوابير موسكو ٩٠" الذى وُلِدَ فى أيام وداعى لموسكو فى العام ١٩٩٠ نفسه.

ودون جهد يُذكر لأن المسألة ثاوية فى أعماقى تماماً. أمد يدي بأناة وشجن. فتمسك أناملى بالخيط الذى يسرى متواصلاً فى نسيج هذين النصين اللذين لم أفكر وقت كتابتهما فى أنهما سينشران معاً.

من حيث الشكل أتصور أنهما نوع من التحقيق الأدبى. القصصى. مشيدان على وقائع لحظات حقيقة. مُعاشة. لكن هذه اللحظات ذاتها وماشُيّد عليها. تم الوصول إليها وانتقاؤها بروح

الفن لبحرفية التقرير. لهذا أصنفهما كتحقيقين قصصيين. فيهما من جسد التحقيق نواة الوقائية. ومن أثير القص ذلك الشغل وذلك الشجن.

أما عن الجوهري، فإنه مشاعر حزينة، أليمة، توشك أن تكون نوعاً من الحسرة أقرب ما تكون لمشاعر من يتابع بكيانه المغدور كُله جزيرة حلمه الكبير وهي تغوص سريعاً، غارقة في أعماق سوداء لحيط لامتناه. فلا أنكر - حتى الآن - أن الاتحاد السوفيتي السابق، أو على وجه الدقة: تمنياتي أو توهماتي في الاتحاد السوفيتي السابق، أو على وجه الدقة: تمنياتي أو توهماتي في الاتحاد السوفيتي السابق، كانت نسفاً من الحلم الشخصي الكبير. رغم أنني لم أكن شيوعياً أبداً بالمعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة.

حتى ديسمبر ١٩٨٥ لم أكن غادرت مصر إلى أي مكان في العالم. وكنت من أواخر المتنوعين

والممنوعين من السفر. رغم أن وضعى كطبيب فى إحدى المستشفيات النفسية الفقيرة للدولة كان يدعونى للسفر على الأقل كما فعل ٨٠٪ من خريجى دفعتى بكلية الطب. لإصلاح عطب الحاجة الماسة إلى المال بالسفر والعمل فى إحدى الدول العربية النفطية.

آنذاك، كانت الخطوات الأولى فى مسيرتى الأدبية قد بدأت بنجاح ملحوظ. وكان ذلك عزاء ينسينى العوز المادى ويجهض أى شروع فى السفر لأسباب اقتصادية. وفجأة، فى نهاية العام ١٩٨٥. وجدت أمامى عرضين للسفر مغربين تماماً، ومتسقين مع نشدانى الثقافى. جاء العرض الأول من جامعة أو هايو الأمريكية - عبر ترشيح الراحل الدكتور لويس عوض والمستشار الثقافى الأمريكى فى القاهرة ليسلى لايل - للسفر إلى الولايات المتحدة فى "منحة ابداع" أدرس فيها الأدب العربى. وأدرس الأدب والحياة فى أمريكا. أما العرض الثانى، فكان منحة

سوفيتية. رشحنى لها بعض الأصدقاء فى إطار
منظمة التضامن الأفرو آسيوى. وزكأنى لها الكاتب
الراحل عبد الرحمن الخميسى. ومترجم قصصى
إلى الروسية من اتحاد الكتاب السوفيت. وكانت
منحة للدراسات العليا فى الطب!

لم أتردد فى حسم اختياري. واندفعت فى نشوة
عارمة محلقاً باتجاه حلمى. كانت صورة الاتحاد
السوفييتى المتشكلة فى داخلى. بناء على
معلومات شائعة يسارياً. واستعداد تعويضى
نفسى للتقبل. تشكل حلماً نادراً وخاصاً تماماً
بقلبى. كما أن اتجاهات الطب النفسى السوفييتى.
التي كنت مطلعاً على أطرافها. بدت لى فى بعض
جوانبها عجائبية. بل سحرية أحياناً.

لم أكن شيوعياً كما أسلفت. كان الشيوعيون
يتهموننى بأننى "مجرد رومانسى ثورى". وكانت
السلطات تحشدنى - دون انقطاع - على رأس
القوائم الشيوعية فى مدينتى وفى طليعة

المسجونين. وكنت بين هؤلاء وهؤلاء أحلم بالمدينة
الفاضلة. أى العادلة. أو الاشتراكية كما كنت
أتصور لكننى لم أخضع أبداً لفجاجة وتهافت
الإلحاد. ولا لفظاظه مفهوم "دكتاتورية البروليتاريا".
كما أن طبيعتى الجانحة دوماً نحو الحرية. ولو إلى
درجة الفوضى. جعلتنى عنصراً مستعصياً على
الاستقطاب والتنظيم الشيوعيين.

كنت. ولم أزل. أرى فى صورة المجتمع الحريص على
العدالة الاجتماعية. والتكامل العام. حلماً إنسانياً
جميلاً ونبيلاً. فإذا كان هذا الحلم مرتبطاً - ولو
وهمياً - بشرى أرض عاش عليها ومات فيها
تورجينييف ودوستويفسكى وتشيكوف وتولستوى
وجوركى وليرمنتوف. أى الكتاب الذين سحرنا عمر
الصبا فى كيانى الأدبى. فى حالة كتلك. كان الخيار
محسوماً باتجاه الشرق لا الغرب.

وصلت - أكاد أكون محلّقاً من فرط الغبطة -
إلى موسكو فى مطلع عام ١٩٨٦. وبعد أيام

السحر الأولى. فى أول بلد كبير أراه. وأول ثلج فى
الشوارع. وأول وعد من الصبايا البيض ملونات
العيون. بدأت أنفجر وحدى فى نوبات بكاء ليلية
مريرة!

كنت أحس أكثر ما أستطيع التحديد بالقول.
وأخْبَى إحساسى حتى لا يشمت بى وبحلمى أحد
من الناس. وبعد أربعة أشهر فقط من وجودى فى
العاصمة الأوكرانية كييف، كانت تشيرنوبيل.
وكنت قد لمست أطناناً من الكذب الأُمى، وعايَنت
اشكالا شتى من دناءات الرشوة والفساد، واقتربت
كثيراً من حدود انكسار القلوب. لكن الصورة - مع
ذلك - لم تخل من حوافز حقيقة للاستمرار. وبعض
الحلم.

ثمة جماليات حقيقية لم يكن القبح قادراً على
إغراقها فى الخضم السوفيتى. إتاحت ثقافية.
ودفاء حقيقى بين بشر لا تفصلهم فجوات
اقتصادية متوحشة. وتفجرات سخية من الجمال

الطبيعى للبيئة - قبل تشيرنوبيل. وكان الطب النفسى الذى اخترت الدراسة فيه كنزاً حقيقياً إذ تخصصت فى مقارنته عبر طرائق الطب البديل. ولعلنى أول طبيب نفسى عربى يأخذ هذا الاتجاه فى الاتحاد السوفيتى السابق. ولقد كان ذلك خليطاً باهراً من العلم والفن والحكمة. ابتداء من العلاج بالوخز والصوم والتنويم والنباتات والمعادن والتأمل. حتى التشخيصى بقراءة الحقائق. والفراسة التى أظن أننى قدمت اقتراحاً لها لتحديثها وإن لم أكمله.

واصلت بعد تشيرنوبيل التى بدت لى كأول صدع كبير يُرصد فى جدران البناء الهائل للاتحاد السوفيتى. ومكثت أشاهد الصدوع الأصغر والأخطر فى هذا البنيان. ولقد كانت عودتى الأولى من الاتحاد السوفيتى فى أعقاب صدام أخرجته إلى صفحات الجرائد مع المسئول المباشر عن الطلاب العرب فى وزارة التعليم العالى السوفيتية الذى

أخفى قرار إستمرارى فى دراسة الدكتوراه رغم استحقاقى الواضح. لأننى لم أقدم له الرشوة التى اعتاد عليها. وكان أن رجعت إلى موسكو بعد تفجر الموضوع والتحقيق مع هذا المسئول والتأكد من استحقاقى. وربما تأكدهم من قدرتى على الاستمرار فى فضح ما أعرف من صفائر هذا الكيان الهائل.

عدت لأستكمل الدكتوراه. لكننى لم أشأ الاستمرار فى العيش فى الاتحاد السوفيتى. لهذا اخترت صيغة "الدراسة من الخارج" أى أن أبحث موضوعى فى مستشفيات مصر. وأبلور النتائج وأؤدى الامتحانات والدفاع عن الرسالة فى الاتحاد السوفيتى. ومرة ثانية غادرت حلمى المغدور. وكانت آخر المشاهد هى "طوابير موسكو ٩٠"

كنت أعرف. بيقين الحس. أن الاتحاد السوفيتى مرشح للانهار. ولأسباب أبسط وأوضح من تلك التى ساقها ولا يزال المحللون السياسيون ومراكز الدراسات الاستراتيجية. لقد انهيار الاتحاد

السوفيتى لسبب واحد يجمع كل الأسباب وهو:
الكذب! وسأظل أذكر أن أحد المنشقين عندما
سأله عن سبب هروبه من الاتحاد السوفيتى قال:
”لقد أردت أن أهرب بأولادى من مصير الكذب“. لم
أجد تعبيراً أدق من ذلك، ولا أبلغ، ولا أكثر إيلاماً.
لهذا لم أنسه أبداً.

لقد كان مصير الكذب مريعاً جداً بالنسبة لى، لا
كشخص مفرد، ولكن كنموذج من ملايين الحالمين
الذين تطلعوا بعيون التمنى إلى تلك الأسطورة
المنبسطة فى الشمال الشرقى من عالمهم الجنوبى
البائس. ولا أجد شعوراً يقارب شعورى فى ذلك إلا
ما أتصوره عن مشاعر ”السندباد البحرى“ فى
إحدى حكايات ألف ليلة. عندما تحطمت سفينته
فى عرض البحر وسبح إلى جزيرة رائعة تراءت له،
وبعد أن عاش هنيئاً بين ربوعها بدأت فى التحرك
وراحت تغرق إذ كانت مجرد تكوين عارض على ظهر
حوت.

الاتحاد السوفيتى كان احتمالاً لجزيرة إنسانية رائعة، لكنها عارضة، على ظهر حوت من أكاذيب الإدعاء، ونقائص ايدولوجيا تزعم الاكتمال، وصغار نفوس قادة صغار لبلد كبير وعريق، عراقية دوستويفسكى وتشيكوف وتورجنيف وبوشكين وتولستوى وجوركى وبولجاكوف.

فى "تشيرنوبيل" تحت علامة التحرك الكبير للحوت الأسود، ورأيت ارجاج الجزيرة على ظهره، وفى "موسكو ٩٠" صار واضحاً أن الجزيرة تفرق فى بحر الظلمات الذى غاص فى أعماقه الحوت، ورغم يقينى فى أنه لا يصح إلا الصحيح، وأن الكذب لا يعمر طويلاً، إلا أن لحظات غرق هذه الجزيرة الحلم، أو وهم الحلم، قد أورثتنى حزنًا لا أظنه يقف عند حدود النصوص.

محمد المخزنجى

١٩٩٦/١٠/١٩

(١)

فصول تشيرنوبيل الأربعة **(لحظات كاتب مصرى عايش الكارثة)**

الربيع

متى يأتى الربيع فى «كبيف» وكيف يأتى
تقول النساء ضاحكات: إنه يأتى فى الثامن من مارس
(عيد المرأة السوفيتية) ويقول الجميع: «إنه يتفجر
فجأة»... ننام والشجر عار، ويقايا الثلوج فى الشوارع،
ونصحو فإذا الدنيا تضج بالخضرة. كأنما تفجرت فى
الليل. لكن لهذا التفجر نذرا: فالثلوج تنوب ويتسارع
نوبانها مع ازدياد الدفء. ويوشك صوت جريان مياهها
على المنحدرات والأرصفة وحواف الأسفلت أن يصيبنا
بالأرق طوال الليل. بل طوال الليالى التى تسبق انفجار
الخضرة. وفى النهار تلوح نذر أخرى للربيع: طيور
مهاجرة تعود، وجنوع أشجار تعلوها مسحة من
الخضرة، وجنوع أخرى تسخو بعصيرها لو خدشت..
نسمع صوت كروان مفاجئ، أو نرى بين أوايد الطير -

عصافير الدورى والعقبان والحمائم - طائراً ملونا يقاتل
بتعثر لالتقاط غذائه.

للربيع الذى يتفجر نذر، تماماً مثل كارثة الربيع..
«تشيرنوبيل»، التى يحركها النطق الروسى لتكون مبنى
يدل على معنى، هكذا: «تشورنى» ومعنا الأسود. و«بل»
بضم الباء وهى تعنى: الألم. فيكون المعنى: الألم الأسود.
ولقد كان الحادث أسود والألم أسود. وكانت النار كما
وصفها أحد رجال الأطفاء الذين هبوا من نومهم على
صراخ الانذار الأكبر (الإنذار من النوع الثالث) فوق
محطة تشيرنوبيل الكهروذرية: «كانت ناراً سوداء تتأجج
فوق سطح الوحدة الرابعة من المفاعل».

نار سوداء انطلقت فى الساعة الواحدة وثلاث
وعشرين دقيقة وثمان وأربعين ثانية فى ليلة السادس
والعشرين من ابريل ١٩٨٦، عندما حدث انفجار الوحدة
الرابعة من وحدات المحطة الكهروذرية. وكان للانفجار
(كما ثبت بالتحقيقات فيما بعد وتم نشره) نذر.. لكنها لم
تكن تماماً كنذر الربيع، فقد كانت خافية، أو تستخفى أو

يتم اخفاؤها عمدا فى واقع بهى الصورة يرعب
الأحشاء. فبالمحسوية والرشوة كان أهل الثقة وأبناء
الواصلين يحلون حيث كان ينبغي أن يحل أهل الخبرة
وخبرة المجتهدين. ومن تزواج الفساد وخبث النوايا كانت
تتوالد شرار الصور. ففى المفاعل المنكوب كانوا يلعبون
القمار والدومينو ويكتبون رسائلهم فى وقت العمل. وكان
كل شئ، مع ذلك، يبدو تاماً. كان التستر يحجب نذر
الكارثة. فمن أصل ٧١ حادث وقعت بالمفاعل، لم يتم
التحقيق الا فى ٢٧ منها. وهذا مجرد مثال.

ويعد (عمرة) فى الوحدة الرابعة راح واحد - من أبناء
الوصلين لابد - يُجرى بجهالة تجربة عظيمة الخطر، فى
عمق ليلة السادس والعشرين من ابريل ١٩٨٦ .. فقد رفع
- نون أية احتياطات أمنية - من طاقة المفاعل .. ارتفعت
الحرارة لحد الرعب .. لحد الجحيم، ثم صب على هذا
الجحيم مياه التبريد، فكان الحريق وكان الانفجار. لقد
اشتعل الجرافيت المهدئ وتحول الماء بفعل الحرارة
الجهنمية

إلى عناصره الأولى: الأكسوجين، والهيدروجين الذى اشتعل وانفجر، ففجر الأغلفة المعدنية الثقيلة حول الوقود النووى وفجر سقف صالة المفاعل.. صار الوقود النووى عاريا ينفث اشعاعاته المميتة عبر فجوة السقف. بركان من نوع جديد تفجر وأحرق أول ما أحرق من فجره. فقد تبخر تماماً حتى لم يعثر له على أثر ذلك المتعالم الطائش. وتوالى خروج جنى الذرة من قمممة الذى انفتح بقوة الترخُّص البشرى فى مواجهة التكنولوجيا العالية. قفزت الحماقة مجتازة أكثر من مائة نظام للأمان يتلو بعضها بعضا، حتى لقد اقترح أحد الصحفيين الذين كانوا يغطون الحادث بوجوب انشاء نظام جديد للأمان يسمى: «أمان ضد الحماقة».

وفى ليلة التعتيم والتكتيم والارتباك لم يعرف الناس - حتى القريبين منهم - بفداحة الكارثة. كذب «بريخانوف» مدير المحطة النووية عامدا. ليقفل من شأن الخطر وظل سكان مدينة «بريبيات» التى تسكنها عوائل العالمين بالمحطة يغطون فى النوم فاتحين نوافذهم لنسائم ليل

الربيع. ليل الرعب الذرى المخفى بعناية البيروقراطيين المحليين. فقد كانوا يأملون فى اخماد النار دون أن تعلم بها العاصمة القريية: «كييف»، عاصمة الدائرة التى تضم فى شمالها «تشيرنوبيل»، على رأس بحر كييف، وعلى مقربة ٨٥ كيلو مترا منها. وكنا فى كييف نغط فى النوم أيضا وإن أغلقنا نوافذنا اتقاء المطر. ولعلنى لاحظت أن أمطار الربيع التى لم ينقطع انهارها فى هذه الليلة كانت مصحوبة ببروق غريبة ورعود.

فى الصباح، عندما كنت أتجول فى المدينة الحديقة تحت شمس ساطعة لم يكن هناك ما يريب. لم نسمع شيئا. لم تكن هناك كلمة تحذير واحدة قد صدرت عن خطر الإشعاع الذرى الطليق. وإن قيل أن اتجاه الريح قد أنقذنا فى كييف خلال هذه الايام المرعبة الأولى، إذ كانت الريح تتجه شمالاً وغرباً - على العكس تماما من اتجاه كييف الواقعة جنوب شرق تشيرنوبيل. لكن الخبر بدأ يتسرب. فبعد الخبر الهامشى الذى لم يلفت انتباه أحد بوحدة من نشرات التلفزيون، وبعد ازدياد قوة الاشاعات

فى أعقاب انتهاء احتفالات الأول من مايو. عدنا نتذكر أن المدينة كانت خالية بشكل غريب من (الأتوبيسات) فى نهار السابع والعشرين من ابريل، ونتذكر الطواير الطويلة لعربات الرش التى كانت تتوارى فى الشوارع الجانبية من ميدان «البابيدا» فى انتظار الانتهاء من احتفالات الأول من مايو، لتتطلق فى غسيل محموم للميدان والشوارع التى كان يزدحم فيها الناس. كان ذلك يؤكد أنباء الحريق النوى وأخبار التهجير الكبير. حيث غادر المنطقة البالغ نصف قطرها - من المحطة - ثلاثين كيلو مترا، نحو مائة ألف إنسان فى رتل من الباصات والسيارات امتد زهاء عشرين كيلو مترا. لم يكن هناك شئ مجلجل، أو جلى، يبين فى كسيف فى هذه الأيام الأولى رغم أن اسم المدينة راح يتردد بلا انقطاع كمعلم من معالم نشرات الأخبار والمواد الإعلامية فى الجانب الآخر. فى أوروبا الغربية وأمريكا. كان هناك حريق إعلامى تبلغ مامعنا لفحاته، ونحن نسبح فى الاشاعات المتكاثرة وشبه الصمت السوفييتى، مؤرقين ما بين

التصديق والانكار.. نسمع: «أسوأ كارثة نووية فى التاريخ البشرى سحابة الاشعاعات المميتة تغطى دول اسكندنافيا وبولندا وألمانيا الغربية. شائعات عن تلوث مياه الشرب فى كييف. خبير غربى يعلن عن اعتقاده بأن ما لا يقل عن عشرة آلاف شخص سيلقون حتفهم فى دائرة قطرها ٥٠٠ كيلو مترا من تشرنوبيل متأثرين بسرطان الرئة».

وبعد تسعة أيام كاملة، وفى مساء الخامس من مايو أطل علينا وجه رومانين - وزير الصحة الاوكرائى ليتكم عن الحادث ويطمئن الناس، لكنه فى نفس الوقت شدد على الاستمساك بالاجراءات الوقائية الواجب اتخاذها فى هذا الشأن وكانت كلها تشير الفزع: «إغلاق النوافذ دائماً، وتغطية الأطعمة حتى المقلب منها وعدم شراء ألبان أو أسماك أو لحوم أو خضروات أو فاكهة إلا إذا كانت مراقبة اشعاعيات وترك الاحذية خارج الأبواب، وتغيير الملابس والاستحمام بعد كل عودة من الشارع». ثم ألمح رومانينكو إلى الاستعداد لتهجير الأطفال من الصف الاول حتى السابع (من سن ٦ إلى سن ١٤ فى مدة

أقصاها الخامس من مايو (أى فى غضون عشرة أيام).
كما تم التحذير من الصيد فى مياه الدنيير والاستحمام
على شواطئه والتواجد فى الحدائق والغابات. وبدأت
دراما تشيرنوبيل فى كيف....

صارت المدينة تفتسل بلا انقطاع.. كانوا يفسلون
الحيطان، والأرصفة، والعربات والأسفلت، والشجر،
والعشب، كل شئ يغسل بخراطيم مياه الاطفاء وعربات
الشوارع ويكل وسيلة متاحة. وثمة رغبة من مادة مثبتة
للغبار كانت تظهر فى الطرقات التى لم ينقطع ابتلالها.
ارتبكت الأسواق، وازدحمت المحطات وظهرت سوق
سوداء لتذاكر الطائرات التى ازدحم حول مكاتب
شركاتها جمهور غفير عصبي المزاج. وكانت الروح
اليائسة للناس تحاول أن تتماسك فى شكل الحفاظ على
صرامة الطوايير واحترام قوانين المرور وعبور المشاة
وأوقات العمل الرسمية. لم يكن يظهر على السطح شئ
بين. لكن، عاد السكارى يظهرون مترنحين فى الشوارع -
بعد فترة انقطاع لتطبيق قوانين مكافحة السكر المشددة

- بدعوى اضطرارهم لشرب قليل من «الغودكا» أو بعض «الفينو الأحمر» اللذين شاع أنهما مضادان للإشعاع لاحتوائهما على عنصر الكوبالت وبدأت لافتات من نوع جديد تظهر عند المداخل من مثل: «تذكروا أن مستوى الإشعاع في الغرف مقفلة التوافذ أقل بعشر مرات مما هو عليه في الشوارع». «و» ارتاحوا داخل البنايات. ولأول مرة بدأت تظهر كلمة «التابوت».. كأمل!!

والتابوت المنتظر كان مشروعاً ضخماً لبناء من الخرسانة المسلحة يصب تحت وفوق وحول الوحدة الرابعة المنكوبة من مفاعل تشيرنوبيل. ولقد حفروا في الأيام الأولى نفقا هائلا تحت المفاعل، أدخلوا فيه الآزوت المسيل الذي تبلغ درجة حرارته بضع مئات من الدرجات المئوية الصفر ليبرد قلب المفاعل المتأجج المنذر بالانفجار. وفي الزنزانة الهائلة التي حفرها رجال المناجم المرتدون ملابس بيضاء تحت المفاعل صبت آلاف الأمتار المكعبة من الخرسانة لتكون (بلاطة) تمنع وصول التلوث النووي إلى المياه الجوفية. وكانوا يصبون في جدران «التابوت»

خمسة آلاف متر مكعب من الخرسانة المسلحة في اليوم الواحد. كانوا يبتغون محاصرة الجنى المثل برأسه من القمم بأقصى سرعة قبل أن يكتمل خروجه. بينما شرعت الرياح - مغيرة اتجاهها نحو الجنوب - تلفحنا في كيف بجرعات من الاشعاع مختلف عليها ولم تكن لتدركها الحواس.

ثمة من كان يهون من أمر هذا الإشعاع الذي يصيب كيف، وثمة من كان يهول. أما أنا فقد سيطرت على مشاعر مركبة غريبة، خارج التهوين والتهويل: كنت في حالة مدهشة - حتى لنفسى - من الاستنفار الداخلى. رحت أضرب بكل تعليمات الوقاية الصحية عرض الحائط لأنور بحرية - نسبية - فى المدينة.. الشوارع، الحدائق، البيوت، المستشفيات، المحطات، غابات الأطراف، شواطئ البحيرات والنهر، وحيثما كنت أستطيع مدّ خطواتى. كنت أحس بأن يدا الله قد ألقت بى فى تجربة فى لحظة من لحظات تاريخ الرعب البشرى.. لحظة أول رعب نووى بلا حرب تعيشه الإنسانية. وأننى لمؤتمن على هذه اللحظة -

ككاتب - فى حدود طاقتى والمتاح لى (كونى أجنبياً) ومن
ثم رحت أتعرض لما لا يعلمه إلا الله والسلطات العليا
السوفيتية من جرعات إشعاعية. لم أستطع البقاء فى
غرفة مغلقة النوافذ بينما الربيع الشهير فى كل الدنيا-
«ربيع كييف» - يزدهر بتوحش.. يتأجج بخضرة كثيفة
وزهور وطيور وثمار شتى تحت مظلة من الرعب النووى
المحقق. الرعب اللامرئى الذى كنت فى حقيقة قلبى لا
أخشاه، ربما لأننى لم أكن أحسه، وأكثر.. لأننى أوقن فى
قرارة نفسى أننى ابن موت.. واحد من بشر قصار العمر
يحيون فى العالم الثالث المكروب، فى الجنوب المتهالك،
حيث القاعدة هى الشقاء والموت المبكر بينما الاستثناء أن
يسعد بعض الناس ويعمرون. ورحت أجمع فى مفكرة
صغيرة ما أراه جديراً بالملاحظة أثناء تجوالى بمدينة
تعيش - بتكتم - تحت مظلة الرعب النووى. وعندما كنت
أنظر إلى ما جمعته أجدنى لم أغادر جلدى.. جلد
القصاص.

الواقع الفن فى ثنايا الواقع الدراج، لهذا كنت أتناقز فوق
اللحظات لأنتقى منها ما يتلامس مع روح القص، أو
يتألف مع أصابع القص، ومن ثم أخرج عن دائرة
المذكرات. فهى إذن: لا مذكرات. لحظات رحت أجمعها.
وأنا أمضى بين حنايا الربيع الملفوح بالاشعاع أو الرعب
من هذا الاشعاع.. لحظات الربيع .

لحظت الربيع

عطش

مثل كثيرين.. كثيرين جدا وصلت إليهم الشائعة،
سهرت أراقب أن ينقطع الماء في منتصف الليل. لقد كان
هذا مثيرا جدا لى أكثر من كونه مخيفا. ربما لأننى لا
أتصوره.. فانقطاع الماء يعنى أن الاشاعة مؤكدة، أن
التلوث الاشعاعى طال مصادر المياه.. يعنى أن الموت
وصل إلى مياه الدنيير، أن السمك سينطرح ميتا على
صفحة النهر، وأن دراما قاسية للبحث عن الماء ستشرع
فى العمل من الغد، فى بلد الماء.

يغالبنى النعاس، اذ تعودت أن أطفى النور واستسلم
للنوم فى الثانية عشرة لأستيقظ مبكرا. كيف سأعرف
بانقطاع الماء؟... تركت الصنبور مفتوحا قليلا لأسمع
الخيرير.. مقدرا أنه لحظة ينقطع الماء سينقطع سماعى

للخير فاستيقظ متنبها بانكسار الرقابة. تكون دراما الماء
قد بدأت، وأصحو لها. ما أغرب تشوفى هذا. وما أقسى
توحشه؟!

إننى بالقطع لم أتمن المأساة. فقط كنت أتشوق إلى
شئ ما يحرك هذا الركود القاتل لروحي: الحجرة
الصامتة فى منزل الغرباء.. نفس الطريق فى الصباح،
نفس العمل ونفس المعارف. نفس الطريق فى العودة،
نفس الطواير فى نفس الحال.. الطعام نفسه، والشراب
نفسه. حتى النزوة تكرر نفسها بنفس التفاصيل .. ثم،
السأم الذى ينتهى به كل شئ.. أكل أقرأ. أنام. وفى
الأحلام لا تأتىنى كيف قط، لا تأتى أبدا، فقط مصر
ولحظاتها المندفعة بل المجنونة والمشعشة. ويغلبنى النوم.

عبرت فى نومى برزخا من تناوب النور والظلمة، ثم
رأيتنى فى المنصورة.. فى شارعنا الترابي، ورأيت أُمى
وأخواتى البنات يتدافعن فزعات من مدخل البيت إلى
الشارع. كن فى ملابس بيتيه، عاريات الأقدام، ويمسكن
بأوان كبيرة فارغة.

ثم امتلأ الشارع بالناس الذين أعرفهم جميعاً. كان
الأطفال يبكون، والأواني تتقارع، وتتصاعد الدمدمات:
«العطش. العطش. العطش.» عندها أمسكت بعنقي
شاعراً بالعطش يحرقني، وكنت أختنق. ثم شاهقاً فتحت
عينى.

كان نور الغرفة مضاءً، ثم تبينت الخريف. وتذكرت
الصنبور المفتوح. فجريت متخيلاً أن يكون الماء قد أغرق
الحمام والردهة. لكننى رأيت ماء الصنبور يذهب فى
بالوعة الحوض بلا أثر. وقبل أن أغلقه، وجدتني لا
شعورياً أفتح للماء أكثر.. أكثر.. وأمد له يدي فيغمزها
فى هذا الليل الدافئ من ليالى الربيع بدفء متدافع،
وراحة.

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

ف. أ

«فالتينا استيبانوفنا» المرتشية الفضة مسئولة المسكن العام رقم ١٤ التابع لمعهد ترقية الأطباء الذى أدرس به، انقلب حالها بين يوم وليلة تهيئاً لما تتوقعه فى عيد أول مايو. ولم يكن واضحاً أنها عرفت بالكارثة. إنها لم تهدأ لحظة فى النهار السابق ولم تنم ألا قليلاً ليلة العيد وهى تزوّق المسكن المطوى على أسرار عشرات المخالفات والجرائم، مركزة فى الزواق على الأماكن المتوقع أن يمتد بصر عميد المعهد إليها فى زيارته المعتادة صبيحة يوم العيد.

صار المدخل يبرق وكذلك الردهات وصالة الخدوات والكافتيريا، وغزت أصص الزهور كل الأركان، وفى الحوضين اللذين يحدان الدرج الصاعد نحو البوابة

أشرب بمعجزة فالنتينية حقلان صغيران جميلان من
زهور التوليب الحمراء الياقة.

لقد كنت أتوقع ألا يأتي العميد، إذ لابد سيدعى مع
العلماء الآخرين للمشاركة في التخطيط لاحتواء الآثار
الصحية للكارثة، وعندئذ ستعلم فالنتينا بما حل، بالكارثة
التي انتشر اشعاعها يحمل نذرا كثيرة، واشاعات.. عن
أخفاء الحقائق، والتدليس، وفساد الضمائر والذمم .

لم يأت العميد كما توقعت، وعرفت فالنتينا - لابد -
بما حدث. ولما كانت علاقتنا على حرف إذ لم تمنحني ما
أستحقه من مكان في المسكن، كالآخرين، لأنني لم أقدم
إليها الرشوة، وشكوتها دون أن يستمع لشكواي أحد،
قررت أن أتفرج عليها في هذه اللحظة الحرجة.. لحظة ما
بعد انفجار مفاعل نووي يمكن أن يفجر خبايا كثيرة.

كانت تجلس في مكان العجوز مناوبة البوابة في وقت
الغداء - كما لم يحدث أبداً - مهمومة وملمومة على
نفسها في ضعف حتى أن جرمها الغليظ أوشك أن
يختفى وراء المكتب. ونظرت إلى بعيني نمره في قفص،

فلم ألق عليها حتى السلام ووجدتني أقول لها: «رائعة
جدا زهور التوليب هذه التى تنبت وتنمو وتتفتح فى بضع
ساعات يا فالنتينا استيبانوفنا».

أحسست أنها تكظم فى نفسها رغبة فى شرب دمي
وأكل لحمي نيئاً وسحق عظامي بغل بين أضراسها. ثم
فجأة لانت ملامحها وابتسمت وهى تتنطق: «أوه..
بالمناسبة.. لقد ذكرتني.. أننى أسفة جدا للنسيان. لقد
قررنا منحك غرفة مستقلة بحمام مستقل. وهاك المفتاح».

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

مكان للاختباء

اشاعة لم تكن مجرد اشاعة. أن ينهار قلب المفاعل المحترق ويحدث الانفجار الرهيب يوم ١١ مايو. الانفجار الذرى. لماذا ١١ مايو؟ هذه كانت حسابات العلماء. أما نحن الذين لا نعرف هذه الحسابات فقد خرجنا لنختار، فى صمت، مكانا نختبئ فيه يومها.

قيل: ستُفتح كل المخابئ الموجودة - بحكم قانون البناء - تحت كل الأبنية وسيهجر الناس الشوارع إلى الأنفاق.. أنفاق عبور المشاه تحت الشوارع العريضة وأنفاق المترو. وأخترت لنفسى ركنا من أركان نفق المترو تحت ميدان «تولستفا».

لماذا هذا المكان بالذات؟ الميدان تحت أرضى.. الذى
يتناثر فيه الرسامون الهواه، ويائعات الورد، وعازفو
البلايكا، ويائعو الكتب القديمة؟
إنه المكن الذى أشرق لى فيه وجه جميل عزيز،
فأشرق روحى!

البطولة

معك يا «ناتاليا سيرجيقنا» يأخذ الحديث اتجاهها آخر،
يصير رحبا رحابة التناجى ما بين كائن إنسانى -
بالمعنى الشاسع للكلمة - وكائن إنسانى مثله. يختفى
ضيق المساحة التى لا تسع إلا رجلا وامرأة عندما تتدفق
بيننا الأفكار. وها أنذا أسعى اليك فى هذا الصباح
متذرعا بزيارة أبيك، فى هذا اليوم من أيام بطولة الرجال
الذين كان واحدا منهم. بطولة انهاء حرب أشعلها مجنون
واحد، قاد شعبا يتسم بالتحضر والذكاء ، ليحرق الدنيا
كلها. واليوم ٩ مايو. اليوم نمضى تحت سماء «كليف»..
لا حرب، ولكن يظننا رعب آخر.. رعب خفى خفاء هذا
الاشعاع الذى تدور حوله الحقائق والأكاذيب. أذهب إلى
«البازار» متجها إلى ركن الزهور.. بضع زهور لك..

ويضع زهرات للبطل النائم.

ثمة شئ يا «ناتاليا» أحسسته يحيط بمواقع بائعات الزهور، شئ رقيق وشفاف.. محسوس لكنه غير مرئي.. إنه الحزن يا ناتاليا.. حزن يلف الزهور (هل كانت ذابلة بعض الشئ على غير عهدها؟) حزن هامد فى صدور الفلاحات وهن ينادين على زهورهن بخفوت. لم يكن يتضحكن كعهدهن وهن ينادين المارة ليشتروا وحزن كان يشوب سممت المشترين. كانوا لا يمكنون طويلا ولا يتفقدون الزهور بعناية كدأبهم. كانوا يشترون بسأم لمجرد أداء الواجب فى هذه المناسبة. وانتقيت لأجلك ثلاث زهور من التوليب الأحمر. حصلت عليها يانعة ندية، لكنها للأسف أصيبت منى فى الطريق.

فى حقيقة الأمر يا «ناتاليا سيرجيفنا»، لم أكن أنا الذى تسببت فى اعطاب الزهور.. فى سحق اثنتين منها على هذا النحو الذى قطع خيوط ضمها وفتحها قبل الألوان. لقد كانت امرأة عجوزا.. عجوز إلى الدرجة التى لم تستطع معها أن تصعد - مجرد تصعد - إلى عتبة

باب الترولى رغم أن العتبة لم تكن تعلو الرصيف الا بعشرة سنتيمترات أو خمسة عشر إذ لاحظ السائق وجود العجوز وحاذى الرصيف لأجلها بمهارة. لكنها لم تستطع رفع جسدها الضئيل هذه السنتيمترات القليلة. كانت ضعيفة ضعف ثمانين سنة أو أكثر.. ثمانين سنة شف لها الجسد الذى لابد كان فتيا قبل أن تشتعل النار السوداء، نار الحرب الثانية، ولابد أنه احترق بمرارة.. احترق كما لا ينبغي «لقد نلت ثلاثة أو سمة يا بنى.. دافعت عن بلدى ببسالة.. بسالة تليق بواحدة من بطلات العالم فى الرياضة».

كانت بطولتها واضحة فى الزمان البعيد يا ناتاليا وظلت ممهورة بثلاثة من أوسع الحرب ، وميدالية بطولة عالم ذهبية فى الرياضة، وميداليات لبطولات شتى.. دولية، ومحلية. وكان كرنفال حفنات الذهب والفضة والبرونز يخفق ويخشخش وأنا أرفعها، خفيفة كأنها من قش، ضئيلة فى حضنى، إلى داخل العربة. كانت بطولتها واضحة نفس الوضوح لذكريات البطولة التى يحتفظ بها

أبوك يا ناتاليا.. هذا الرجل الذى لم يذهب العمر بما يؤكد أنه كان قويا قوة رجل فارع وعريضا ومحبا للحياة والناس. مازال هائلا حتى فى سرير الشلل المباغت، وهذه الميداليات والأوسمة على صدر بذلته المعلقة على الحائط لصق سريريه. «هل كان يصبر اليوم على الخروج للاحتفال بالذكرى ولم يقدر؟».

«كان يصبر، وأثنينا عن ذلك بصعوبة. لم يقتنع الا بعد أن ارتدى بذلته وحاول المشى فترتح وكاد يسقط على الأرض لولا أننا أدركاه - أنا وشقيقى سيريوجا الذى كان هنا قبل أن تأتى بقليل. أثنينا بصعوبة وهو يحاول من جديد ويشير مصغيا.. يردد أنه يسمع سيمفونية البطولة تذاغ فى كل الاماكن، فى الشوارع والميادين ومحطات المترو. أثنينا بصعوبة واكتفى بأن أعلينا له صوت المذيع الذى كان بالفعل يذيع «البطولة» فى هذه اللحظة». أه يا ناتاشا.. ما أقسى مال البطولة فى زماننا، وأنت تومئين منفعة ومواقفة وأنا أحاول أن أترجم لك شيئا من قصيدة شاعرنا* عن الخيول.. «الخيول التى

كتبت بدمائها تاريخ الفتوحات، ورسمت بسنابكها حدود
الممالك. صارت تماثيل من حجرٍ فى الميادين وأراجيح من
خشب للأطفال وفوارس حلوى وأحصنة من طين ورسوماً،
ولم يتبق لها سوى عرق من تعب يتصبب ودنانير ذهبية
فى جيوب هواة الخيل وحليبات المراهنة وفى نزهة
السائحات اللائى يعلنون ظهور الخيول». أه يا ناتاشا
عندما تفاجئيتنى بكائك وأنت المرحّة أبداً. أه يا ناتاليا
من هذا الاقتراب المواسى الذى يضيق المسافة بيننا. أه
يا ناتاليا سرجيفنا من هذا الصمت الذى يتجسد لنا فيه
وجود الشعاع فكأنه يدوم، ليصينا بالدوار.

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

كوب ماء

ألبي دعوة للغداء عند صديقي العجوز «أنا تولى يفجينيفتش». وعلى المائدة البيضاء الصغيرة فى المطبخ شديد النظافة يجلس معنا حفيده «ماكسيموشكا».. يجلس جميلا ومضحكا كطفل فى الثالثة، ينادى جده: «ديا دوشكا تولا» وينادينى بصيغة التصغير والتدليل: «موخا ميدشك». ويصر على ذلك رغم تكرار انتهار جده له، ومحاولة انهائه عن مناداتى بهذا الشكل الذى لم يصدق «أنا تولى يفجينيفتش» أنه يضحكنى ويسعدنى من طفل صغير جميل بترافقة «ماكسيموشكا». وبعد لقيمات يطلب الصغير أن يشرب، فيوقعنى بطلبه البسيط هذا فى مأزق مؤلم.

لقد لبي جده طلبه على الفور، لكنه بدلا من أن يملأ

كويه الصغير بالماء البارد ملأه من صنبور الماء الساخن،
ووضعه على المائدة طالبا من الصغير أن ينتظر حتى يبرد
ثم يشرب. وبدأ مكسيموشكا يلح في طلب الماء البارد.
وعندما أبدت استغرابي راح الجد يؤكد لى: «إنه
الاشعاع.. يقل فى الماء الساخن». ثم إنه ورطنى فى
الشهادة، وقال للصغير: «وها هو الدكتور.. اسأله». فلم
أعرف ماذا أقول، لكننى فضلت ألا يفقد الصغير ثقته فى
تعليمات جده.

استسلم الصغير بعد تأكيدى لكلام «ديا دوشكا تولا»:
وانكمش مسندا ذقنه على حافة المائدة يتأمل الكوب أمامه
ريثما يبرد. وبدأ مستغرقا وحائرا بينما عيناها الملونتان
الصافيتان تبحثان ببراءة كلية عن هذا (الاشعاع) الذى
ربما يكون (صاحيا) لم يزل فى الماء رغم تسخينه!

شئ مريك

شئ مريك أن أجد نفسى بين هذه القبيلة من الناس الذين تتدفق دموعهم عندما يتأثرون حزنا أو فرحا. وها أنذا أحاول ضبط نفسى بكل ما وسعنى من إرادة واقفا على رصيف فى محطة قطارات «كييف»، أمام القطار الذاهب إلى الجنوب حتى «أوديسا» .. على الرصيف جدات وأمهات وآباء وأقارب وأطفال يتم ارسالهم بعيدا، أبعد ما يمكن عن كييف التى ارتفعت بها نسبة الاشعاع بعد حريق تشيرنوبيل، مما يهدد خلايا الأطفال الحساسة والرقيقة بالضرر. أطفال ما بين عمر الرضاعة وحتى سن المدرسة.. هذه هى الدفعة الأولى من الأطفال الذين سيتم ابعادهم عن المدينة.. يذهب بكل منهم الجد أو الجدة التى فى سن المعاش، أو الأم أو الأب الذى منح أجازة من

العمل، أو أى من الأقارب الذين لا يقيدهم عمل أو دراسة
فى المدينة.

على الرصيف ما بقى من الأسر للوداع، وفى نوافذ
القطار - خلف الزجاج - أطفال وجوه وأيادى أطفال..
وجوه لاهية ووجوه تضحك ووجوه تبكى، وعلى الرصيف
فى انتظار تحرك القطار يتماسك المودعون. ثم يبدأ
القطار تحركه ويتوالى ذهاب النوافذ.. قطار أطفال..
تتزاحم وجوههم الغضة وتودع أياديهم.. أياد صغيرة
جميلة، طرية، لا تعرف بعد كيف تلوح فى الوداع،
وبعضها يعرف معرفة كأنها رفيف أجنحة الفراش.. لا،
بل أجمل وأرهف من أجنحة الفراش. إنها أيادى أطفال،
وكفى. وكأن خيطا رفيعا يصعب قطعه يربط بين الأطفال
فى النوافذ الذاهبة وذويهم المودعين على الرصيف..
يتحركون مع القطار ملوحين كاتمين الدمع. ويسرع
القطار فأجدنى، بطبيعتى المربكة تلك، لا أستطيع
السيطرة على دمعى. أجده يتفجر مع اسراع القطار
وذهاب النوافذ الممتلئة بالأطفال الذاهيين. وأستدير نحو

حائط أحد أكشاك الرصيف، وهات ياعين.. أبكى لا أعرف لماذا بالضبط أبكى، لكنها كل أحزان العمر تتجمع فى هذه اللحظة وتدفعنى إلى البكاء الذى كلما حاولت كبحة يجمع أكثر. وأشعر بمن يمس كتفى فأستدير.. إنها جدة، تسألنى بحدب وتأثر: «طفلك يا بنى». فكأن الكلمة تؤجج حرقه البكاء لرجل ينسرق منه العمر وليس لديه أطفال، وربما لن يكون.. يشتعل البكاء، فتفهم العجوز أن النشيج يعنى الاجابة بنعم، وتضمنى مهددة:

«سيعود يا بنى. كلهم سيعودون. أيام قليلة فقط وسيعودون إلى قلوبنا». وأنفجر فى بكاء أشد ينتفض له جسد كله.. تربت على الجدة التى أخذتنى فى حضنها وهى تواسينى، بصوت أسمعته يتهدج: «كفى يا بنى. كفى. سيعودون. ان بكاءك مؤثر يا بنى. أنت تجعلنى أبكى. تجعلنى أبكى يا بنى». وانفجرت تبكى. فصرنا معا، على رصيف محطة قطارات كييف، فى هذا اليوم من أيام تشيرنوبيل الأولى: شاب عربى، وعجوز أوكرائية.. لا يعرف من يراهما، يقينا، أيهما يضم الآخر ويربت عليه بهددة.. لعله يكف عن البكاء.

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

لا، الروسية

أزعم قياسا على معرفتي بطعم الـ (لا) فى لغات أخرى، أن لا الروسية هى أجمل اللغات جميعا. «نييت» لا ليست هكذا أبدا، بل هى شئ آخر.. توحى إلى بأنها فى حد ذاتها كلمة أنتى، تلك الأنوثة الروسية التى تكتنز أشياء عديدة فى وقت احد: جمال الشقرة الأوربية ويضاضة الشرق.. سخونة بنات السلاف وانطواء الثلج على آلاف الأسرار المخبوءة تحته. لا، التى ينصحك كل من عرف روسيا ألا تصدقها من أول مرة. فهى قد تعنى لا، وقد تعنى نعم. وقد تعنى نعم ولكن ليس الآن. أما (لا) من عند البنات فاه من هذه اللا.. لابد أن تكون قد أذابتك تماما. (لا) أجدنى على موعد معها اليوم، فى محطة قطارات كييف. المنظر الذى لم يحدث أبدا.. الزحام المضطرب والأطفال الجلى وجودهم فى الزحام.. أطفال فى أيادى الأهل، وأطفال ينتظرون على الأرائك، وأطفال فوق الحقائق لصق الجدران.. أطفال بقبعاتهم ومناديل

الرأس الاوكرائنية الملونة. أطفال لم تكن هناك وسيلة أبدا
لاقناعهم بعدم اصطحاب قطيقاتهم أو جرائهم أو
الجواريف أو القبعات. بل إن كثيرين منهم أصروا أن
يرتدوا ما يعتقد الطفل أنه أحلى ما يمتلكه من ملابس..
بلوفر أحمر، رغم الحر.. أو قبعة شمس وقفاز شتوي، معا
أطفال ورد الحر خدودهم. وبدلا من أن تضحك لمناظر
اللعب أو الحيوانات التي أصروا أن يحملوها.. تضحك
المناظر.. عرائس اللعب في أيدي البنات ودلاء وجواريف
البلاستيك في أيدي الأولاد. أطفال لاهون في الزحام.
أطفال للسفر بعيدا عن أحضان الأمهات، ووضع الأيادي
الصغيرة في أيادي الآباء الكبيرة، وملاعببة الجدات،
والتنزه مع الجد. أطفال للسفر. ولوحة الإعلانات
الالكترونية التي تشير إلى القطارات الزاهية. لوحة بطول
جدار شاهق وعرضه.. تتابع فيا أسماء المحطات البعيدة
والمواعيد والأماكن ولا لا لا لا. لكمة واحدة تتكرر مظلمة،
ويطول الجدار وعرضه. لا، لم تعد هناك أماكن. وأطفال
على المقاعد، أطفال على الحقائب، أطفال على الأرض.
ويضيع منى جمال (لا) الروسية في فزع الزحام.

نهاية الخط ١٠

مثل كل المرات التى اشتدت على فيها وطأة الشعور
بالغربة خرجت وألقيت بنفسى على مقعد خال من مقاعد
أتوبيس «خط ٣٠» - بجوار النافذه.. أطل عبر الزجاج..
أرى

الشوارع لم يعد يمشى فيها غير قليل من المارة،
والحدائق لم يعد يرصعها مرح البشر، حتى المقابر
صارت بلا أكاليل.. ثم تأتى بيوت أطراف المدينة،
الخصيبة الجميلة المحوطة بحدائق الكرز والتفاح - فاكهة
لن تجمع أبدا وستظل حتى تتساقط ذابلة وتحمل إلى
مقابر خاصة فى ثلوج القطب. وأخيرا يمر الأتوبيس
بمناطق غابات الصنوبر والبحيرات الصافية الصغيرة
ودور الاستشفاء والمحطات النائية. هناك أقصد أصحابى
الذين تعودت أن أراهم كلما أطبقت على عنقى أصابع

الشعور بالغبرة. ما الغبرة؟ لقد أجهدت نفسى لأحلل ما
يمكن أن تكونه، ووصلت بعد تفحصى للاحتمالات الكثرية
أنها يمكن أن تكون العيش فى مكان لا تعطى فيه ولا
تأخذ. عطاءاً حقيقياً وأخذاً من المشاعر.. مشاعر لا
يحملها واجب اللياقة بل تتفجر بتلقائية وتنساب بلا عمد
كأنها مياه الينابيع تتفجر لفرط اكتنازها تحت الأرض
وتسيل إلى حيث ينتظره ويتلقفها المنخفض مرة تكون أنت
النبع وأخرى تكون المنخفض. لكن الغربة ببساطة تجعلك
شيئاً مسطحاً، أو ناتئاً ومحجوزاً بسور عالى من الدلالات
العميقة للغة، وارث تقاليد المكان وأعرافه، وخبراته
الحياتية ومشاعره. من تعطى ومن يعطيك - حقيقة -
وأمامك كل هذا السور؟ غربة. لكننى بالصدفة رأيت هذا
السور ينهار أمامى بعدما ألقىت بنفسى مرة، من مرات
الضيق، فى هذا الاتوبيس - خط ٣٠. لم أكن أعرف
مساره، لكن اتجاهه بدا لى جديداً.. لم أطرقة. سرت
عنى مناظر الشوارع المحفوفة بالأشجار، والبساتين
المتعاقبة والمقبرة المثقلة بالزهور، والبيوت الخشبية،

وحقائق الفاكهة من حولها، وغابات الصنوبر والبحيرات.
مقدمة بديعة لانهيـار السور - سور غربتى - عند نقطة
النهاية. فبينما الأتوبيس يدور منهيـا مشوار الذهاب
ومتوقفا للاياب رأيت بما يشبه المفاجأة فى هذا الطرف
البعيد، أكثر من مائة طفل يتجمعون أمام بوابة حديدية
مفتوحة تفضى إلى ممشى طويل يشق حديقة واسعة
تظاهرها بناية ممتدة من طابقين. تشبه قصرا من
القصور العتيقة. ظننت أن الأطفال فى رحلة إذ كانت
معهم يضع شابات رجحت أنهن معلمات وأخذت أنتظر
أن يبدأ تدفق الأطفال فى الاتوبيس، متخيلا ببعض
الانتعاش والبهجة رحلة داخل اتوبيس يملؤه الأطفال كان
انتظارى استطال حتى أغلقت الأبواب وبدأ الاتوبيس
يتحرك فنظرت مستغربا إلى الخلف... رأيت لمة الأطفال
لم تزل أمام البوابة مع الشابات الأربع أو الخمس.
وأسرع الاتوبيس خاليا عبر الطريق المرصوف بين
الغابات، فتقدمت من السائق وسألته، أخبرنى أن الأطفال
نزلاء لهذه المصحة الوقائية المخصصة لإبعاد الأطفال عن

مخالطة ذويهم المصابين بالسل. ويبدو أننا حقاً نحس قبل أن نفكر، إذ وجدت نفسي أهبط عند أول توقف للاتوبيس وأخذ الاتوبيس الآتى فى الاتجاه المعاكس لأهبط فى المحطة الأخيرة.. أحداث الشابات فيلتم حولنا أطفال المصدورين، وأحس بهذا النبع القديم الذى أغلقته الغربية يعود يتفجر.

فقد كان واضحاً أن احدا لايجئ إلى هذه البقعة النائبة. وإن هذا الخروج أمام البوابة رغم وجود حديقة المصححة الواسعة، ما هو الا تعبير غريزى عن الحنين إلى الخروج من عزلة ما وكان الأطفال يقتربون رافعين وجوههم المستطلعة نحوى بينما كنت أحداث الفتيات اللائى عرفت أنهن يقمن برعاية هؤلاء الأطفال فى هذه المصححة. وأى شعور يتدفق؟ عندما تحس أن وجودك مجرد وجودك، يمنح هذه القطع البشرية الصغيرة الجميلة شيئاً يجعلهم يضطربون من حولك فى مرح وينظرون اليك فى تشوف جميل. فرح. مجرد وجودك فرح. فرح فى هذه العيون الصافية الملونة.. فرح فى عشرات الوجوه الوردية

الجميلة.. قطع قطع قطع.. قطع بشرية صغيرة أخذت
لداعى مصلحتها - التى لن تقنع بها أبدا - من مهاتها
الصغيرة وأحضان الأمهات والجداث وحنو أذرع الآباء..
أخذت من ألفة الأهل والبيوت لتودع فى هذا الطرف
البعيد.. النائى بين الغابات. تعبر عن رأيها فى هذا الأخذ
وهذه العزلة بهذه الطريقة الغريزية من الخروج أمام
البوابة والتطلع إلى الاتوبيس الوحيد الذى يصل إلى هذه
البقعة. لعله يأتى بشئ. وأجى أنا.. أصير الشخص الذى
ما أن يلمحوه داخل الاتوبيس القادم حين يتهللوا، وأسمع
أصواتهم الصغيرة الجميلة وهى تتسابق فى هذا البراح:
«جاء. جاء نعم هو هو. أنا شففته. هو. هو. جاء» وأهبط
إلى أصحابى. مائة قطعة بشرية صغيرة تجد فى زيارتى
ما يطربها.. هذا الطرب الجميل المنمنم الذى يعطينى من
المشاعر ما يساوى الحياة ذاتها. وهل توجد حياة إنسانية
بدماء باردة فى العروق؟. كانوا يدفعون دمي فى كل مرة
فكأننى أنبعث من تحت ركाम جليد الغربة، وأحس بشئ
ما من الاكتمال فى وجودى يجعلنى أنشط للوجود.

أضحك وأحلم وتتألق فى ذهنى بهجة مشاريع جديدة.
نفس الشعور بالتأهب للحياة الذى كان يدب فى عروقى
أثر مثل هذه اللحظات فى مصر.. فى أعقاب تمرىضى
لأُمى، أو حملى لأبى الواهن عبر الطريق، أو عند العودة
من زيارة واحدة من أخواتى البنات أو الأهل فى صباح
العيد، وعندما كنت ألتقى خبر شفاء مريض أعالجه كانوا
يعطوننى هذه اللحظات، وكنت فى الاتوبيس - خط ٣٠
أسعى إلى نقطة النهاية لأنال مثلها.. ألتقى من القطع
البشرية الصغيرة الجميلة عطاء كل مرة. وتلح نفسى على
هذا العطاء اذ تقبضها رؤية المقابر بلا أكاليل وشجر
التفاح المهجور لحد التغضن. وأصل فتشدد من القبض
على قلبى رؤية المكان بلا أطفال، والبوابة الحديدية
موصدة، ولافتة صغيرة على البوابة تقول: «الاتصال
بداخل المصحة عبر الهاتف رقم...». وأذهب لا تصل من
كشك التليفون المجاور للبوابة. فأعلم أن الأطفال مستبقين
فى الداخل لداعى الوقاية من الاشعاع وأن الزيارة
محددة: للأهل فقط. للأهل فقط؟! وأخطو فى هذا السكون

ما بين الأشجار ومدار الأتوبيس الذى ذهب ولم يرجع
بعد. وما بين السور والبوابة المغلقة أمضى وأتوقف..
أنظر عبر قضبان البوابة إلى بناية المصحة هناك. خامد
هو دمي كأنه برد فى عروقي وسط كل هذا الخلاء
الساكن، ونوافذ المصحة التى ألمحها هناك، أحس بوجوه
الأطفال المحبوسين تتطلع من خلفها لكننى لا أراهم.
وأعرف أنهم أيضا لا يروننى. أى عزلة مضاعفة، أى غربة
أيها الفزع اللامتصور؟.

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

أهم شئ

فى سهرة بيتية بأحد مساكن الدراسين الأجانب بدا الدكتور إبراهيم دارس التحاليل الطبية منتبها شديدا الانتباه وهو يستمع إلى الدكتور أحمد دارس علم الاورام يحكى عن الجثة التى حضر تشريحها بمعهد السرطان وكانت لواحد من ضحايا تشيرنوبيل. حكى عن معاطف النايلون التى ارتدوها قبل التشريح، وأقنعة التنفس، والقفازات. حكى عن عملية القياس الاشعاعى لكل أجزاء الجثة. ثم حكى عن الملاحظة الأساسية، نتيجة التشريح، وهى: النزيف الداخلى الحاد.. فى المخ، فى الرئتين، فى الأمعاء، فى حوض الكلى، وفى كل الأماكن. عندئذ وجه الدكتور إبراهيم سؤاله الذى وضع أنه ظل يقلقه: «لكن .. هل تساقط الشعر كما فى حالات التعرض

لجرعات العلاج النووى العالية؟! وهنا بدأ طبيب الأورام يتذكر... فلم يتذكر إلا أن الجلد كان خاليا تماما من الحروق، أما الشعر؟! وثار الدكتور إبراهيم ثورة عنيفة صارخا فى أحمد: كيف لا يتذكر هذا الشئ الهام وهو طبيب أورام.. كيف لا يتذكر؟! ويبدو أن الدكتور أحمد كان يميل إلى الهدنة أكثر من كونه يخبر بالحقيقة، اذ قال بهدوء: «كان شعره سليما كله. كان سليما». وهنا تحسس الدكتور إبراهيم شعر رأسه الخفيف الموشك على الصلع وتنهَّد نابسا فى ارتياح: معقول.

ثوب الحمام، شال الحمام

سيد الكائنات مصابة أليم. سيد الكائنات غارق فى حزنه. سيد الكائنات مأخوذ بالكارثة. سيد الكائنات الان يودع أطفاله على أرصفة محطة القطارات الزاهية يتزاحم بهم على نوافذ حجز الطائرات. يذهب ليقيس ما أصابه من اشعاع أمام أجهزة «السيسمو» التى انتشرت فى كل الأماكن.. المستشفيات، المصانع معاهد العلم.

سيد الكائنات منطو على همه.. يفكر فيما سيكونه الغد. كيف سيأتى المواليد أن أتوا فى أى شكل سيكون السرطان. متى ستكون البداية. كيف يعد لها منذ الآن. سيد الكائنات متعب. وفى ميدان «الفولاسفا» يجوع الحمام الذى يغطى طرققات الحديقة. الحمام الذى اعتاد الناس يتقاطرون على مدار اليوم لزيارته. أطفال مع

أمهاتهم والآباء. عاشقات صغيرات بصحبة العشاق.
وعجائز صفاهم طوال العمر من كدر الانشغال. كل هؤلاء
كانوا يجيئون.. يأتون ببقايا الخبز وأكياس الحبوب.
والحقائب القماشية المليئة تحملها أيادي العجائز
المرتعشة. تحفن الأيادي وتنتثر. وتحفن الأيادي وتنتثر.
الآن انطوى العشاق، وخبأت الأمهات أطفالهن من الرعب
الذي لا يبين، وتسافر الجدات بعيدا عن كييف مع
الأحفاد. ويجوع الحمام. ليس الجوع الذي يقتل. لكنه
الجوع الذي يتبدى عندما تصل إلى ساحة الحمام امرأة
عجوز. واضح أن ليس لديها حفيد لتسافر به فهي تأتي
حاملة حقيبتها القماشية كعادتها. فيتكاثر حولها الحمام.
يتزاحم حولها ويخفق بأجنحته وهو على الأرض أو يقبل
مرفوفا يهبط من فوق الأرض القريبة. وعندما تمتد يدها
وتحفن من فتيت الخبز وترمى، يهجم الحمام. يتقاتل على
النثار ويتخطف بمناقيره الفتات. وتنشب المعارك الصغيرة
المريرة في ساحة الحمام. وتتحرك العجوز لترمى بحفنات
أخرى في بقع أخرى، لتفض صغير المعارك.. مرير

المعارك، فيزحف خلفها الحمام مسرعا على الأرض في
تزام، أو طائراً حولها في ارتفاع خفيض. وتبدو العجوز
وهي تتحرك في ساحة الحمام وكأنها تجر أذيال ثوب من
حمام، وتتطاير حول أكتفائها أطراف شال من حمام.

اللحظة

أشعر مع تصاعد الاحساس العام بالكارثة برغبة لا تقاوم فى رؤية المرأة التى كنت أعتز عليها دائما عند جادة «نيفكى»، بالقرب من ضفة العمارات اليمنى فى شارع «ساليوتنايا». المرأة التى تبدو مبتسمة دائما، بل بالنسبة لعمرها وقواها تبدو متهلة.. فهى فى فرح دائم وتكرر على سمع كل من تلقاه، بخماس، وكأنها تلقت الخبر لتوها: «هاه.. تهانئى تهانئى. لقد انتهت الحرب. اليوم ٩ مايو انتهت الحرب. تهانئى تهانئى. وفى كل مرة كانت تشق قلبى بتهللا هذا،

باستبقائها الغريب لهذه اللحظة التى مضى عليها أكثر من أربعين سنة. اللحظة التى لا تصدق بالنسبة لواحدة مثلها - لا بد أنها اکتوت بنار الحرب الثانية

العظمى. لحظة انطفاء الحرب.

وأبحث عنها لأراها فى هذه اللحظة من لحظات
تصاعد الشعور العام بالكارثة. أتخيل ردود فعلها التى
يمكن أن تتبدى فى الكلام.. أتخيل المفارقة فى «تهانئى.
تهانئى» .. أتخيل، وأتخيل ما وسعنى التخيل.. فالمرأة
التي أبحث عنها عند جادة «نيفكى» بالقرب من ضفة
العمارات اليمنى فى شارع «ساليوتنايا»، تبدو كأنها ..
تبخرت.

الضيف

وما الصيف إلا ربيع تشتد حرارته فى كيف. خضرة
أكثف وحرارة تقترب من الخامسة الثلاثين مئوية فى
النهار. لكنها تبدو لمن لم يعتدها كما لو كانت أربعين
درجة بسبب الرطوبة التى ينشرها تنفس الغابات
والحدائق والبحيرات ونهر الدنيير الفسيح المتفرع مدينة
غارقة فى البساتين حتى ليشاع أنها أكثر مدن العالم
خضرة.

وفى هذا الفريوس الدافئ. بدل الناس عاداتهم التى
كانوا قد اعتادوها فى أصياف مضت قبل تشرنوبيل.
فالبحيرات هجر شواطئها المستحمون والغابات لم يعد
يفشاها البشر. والحدائق صارت بلا زوار. ولا أطفال فى
كيف. إذ تم ترحيل الأطفال إلى معسكرات الشواطئ
البعيدة وقاية لرقيق خلاياهم مما قد يتفثه المفاعل
المنكوب. لقد حشوا فوهته بصدادة من الرمل والرصاص

والدولوميت والبورون كانت تلقيها الطائرات المروحية من الجو. سداة وزنها خمسة آلاف طن، فهل انجاب الرعب الخفى؟.

قيل أن بقايا التفاعلات الحرارية قد بدأت تخمد. لكن مستوى الاشعاع عند المفاعل ظل عاليا. ومع ذلك زال توتر هائل بزوال احتمال وقوع انفجار نووى إذا احتمل قلب المفاعل ثقل السداة فوقه، واستجاب لتبريد الأزوت المسيل فى النفق الذى حفر تحته. وكان التابوت يرتفع: سوران هائلان من الخرسانة المسلحة أوصلا بقاطرات ضخمة ليحيطا بمبنى المفاعل. توقف الحريق ولم يتوقف تماما الإشعاع ولا الإشعاعات التى تحيط به. وكان حريق آخر لا يزال يشتعل فى الاذاعات الموجهة من الغرب.. عن ارتفاع عدد الضحايا، عن ترحيل الأجانب من المدينة، وعن نداءات توجهها بعض البلدان الأوربية الغربية وأمريكا إلى رعاياها بعدم التوجه إلى كيف خاصة.

وامتد الصيف ثقيلًا بعد رحيل معظم الدراسين الأجانب عن مسكننا الجماعى (الأويشى جيتى)، إن خوفًا

من الاشعاع وإن عودة إلى سابق عهد الاجازات الصيفية
يقضونها فى بلادهم. ثم أن كل زملاء المسكن من
السوقيين غادروه أيضا، ولأسباب شتى: التصيف أو
التطوع فى معسكرات العمل. وعبر الظل والحرور
والزهور والخضرة والثمار المنسية عمدا على الأشجار،
وحيثما كان الاس الذين مكثوا فى المدينة، كنت أمضى
مواصلا جمع لحظاتي. لحظات الصيف.

لحظ ان الصيف

قيام

فى العادة عندما تصعد إلى الباص امرأة كهذه، يقوم من مكانه ويتركه لها شاب واحد. أما الآن. فمع صعودها يسارع بالقيام لاجلاسها ثلاثة، بل أربعة.. بل خمسة، خمسة رجال نهضوا فى وقت واحد لتجلس امرأة. امرأة تحيط بها النظرات كاتمة كل ألوان الانفعال. امرأة تمتلك إمكانية الإجابة على السؤال حول مصير البشر فى بقعة لفحها الإشعاع إلى هذا الحد. امرأة تحمل بشارة النجاة، أو إشارة حلول الكارثة فى أقصى مداها.. فهى.. حامل.

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

راحه

كل شئ فى كيف يستحم حتى تزول عنه ذرات الغبار
المحملة بالاشعاع.. كل شئ تُسلط عليه خراطيم المياه
القوية: الشجر، واجهات المباني، ورد الجنائن، عشب
المدارج، الأرصفة، المركبات، الأسفلت. والبشر، ينبغي أن
يستحموا فور رجوعهم من الشوارع، ويبدلوا ملابسهم
بأخرى مغسولة. حتى لو خرجوا وعادوا مائة مرة، مائة
مرة ينبغي أن يستحموا ويغيروا ملابسهم. كل شئ فى
كيف يستحم فى هذا الصيف بلا انقطاع، وتحمل
البالوعات آلاف آلاف أطنان مياه الاستحمام إلى أين؟...
إلى النهر؟.. إلى الدنيير الفسيح، فيستحم سمك النهر فى
الماء الثقيل بذرات الغبار المثقلة بالاشعاع. ألهذا حرموا

الصيد فى مياه الدنيير؟. ولم تعد أسماك النهر الحية
تُطرح للبيع فى الأسواق؟. عله يستحم براحة.. يستريح
قليلا فى الماء المخيف سمك النهر.

قتل

ما الذى توحى به بالونة؟.. طفل فرحان؟.. يوم عيد؟..
طقس احتفالى؟.. لكن هذه البالونة بدت شيئاً آخر..
بالونة كبيرة منقلبة بخيطها. بالونة مهجورة من يد طفل
أخذ على عجل، أخذ برعب لا يفهمه. بالونة مكثت أياماً
طويلة هائمة على طريق تشيرنوبيل.. لم تنفجر بفعل
شمس الصيف الحارة.. لم تطأها - لسبب غير مفهوم -
أى من إطارات وجنازير المركبات التى مكثت تدب لا
حصر ذاهبة إلى مركز الكارثة أو عائدة منه. لم يمسك
بها سائق أو راكب لسبب أن النوافذ لم يكن مسموحاً
بفتحها فى هذه البقعة المثقلة بالاشعاع. بالونة غريبة
صارت من معالم الطريق.. تتحرك بين المركبات، يحملها

هواؤها قريبا من الأرض، ويطوّح بها بطيئًا هواء الدنيا،
فكأنّها تترنح. بالونة صارت مؤلة غاية الإيلام لكل من
يراها. ومتأبّية على الانفجار كأنّها تصر على اعتصار
القلوب المحزونة.. روح هائمة بعذابٍ يعذب من يراها..
عذاب، لعله كان المبرر لأن يجن أحدهم مرتين في أن
واحد.. فقد فتح نافذة السيارة، وأطلق على بالونة النار.

معارضة

فى كئيف يلتقى المعارضون فى حديقة «شابشكا»،
وتحت جناحى الشاعر تلتئم الصور التى يستأثر باهتمامى
من بينها الرجل فى اللون الأسود.

لقد ساد الأبيض فى صيف حديقة «شابشكا» هذا
العام، ليس فقط لأنه لون قمصان القوميين الأوكرانيين
المطرزة الطوق والأكمام، ولكن أيضا لانتشار القناعة بأن
الأبيض مقاوم للإشعاع إذ كان يرتديه عمال المناجم
الذين حفروا نفقا للأزوت المسيل تحت قلب المفاعل
المنكوب، ولا زال يرتديه اللذين يبنون التابوت الخرسانى
حول المفاعل. لهذا كان الرجل فى اللون الأسود متميزا
بشدة وسط بياض القمصان وخضرة الحديقة.

كانوا فى الحلقات واقفين أو جالسين يتظاهرون باللعب

أو الفرجة على مباريات الشطرنج الودية والتقليدية في هذه الحديقة، بينما كان الحديث يتساحب عن الغبن اللاحق بأوكرانيا وعن المفاعل الكارثة الذي زرع بالإكراه وباستبداد موسكو في أرض الأوكرانيين، بل في أعز أراضيتهم.. في مقاطعة العاصمة «كييف»، وعلى الرغم من معارضة ابنائها من سياسيين وعلماء. وكان بطل الذي أتابعه، في الأسود، يتنقل صامتا بين الحلقات.

كان واضحاً أنه وضع كل ما في داخله في هذا الأسود على جسمه، وخرج مشغولاً تماماً بأسوده، وبالتفات الناس إلى هذا الأسود. كل شيء يرتديه كان أسود: القميص، والبنطلون، والحزام، والحذاء، حتى فانلقته الداخلية التي تطل من صدر قميصه المفتوح قليلاً كان لونها أسود. ورجحت أن جوربه أسود كذلك، وأخذت أراقب يديه بدقة منتظراً أن يخرج منديله.

. كان لون المنديل: أحمر!!.

أجيال

شهقت العجوز متوقفة عندما مررنا بها فى ممشى
شارع «شرباكوفا» الظليل. وقد كنا أتين من السوق نحمل
سلال الفراولة الممتلئة وسمك النهر الصاحى فى مياه
الدلاء التى نحملها فيما بيننا، اثنين اثنين. شهقت محدقة
فيما نحمل ثم ابتعدت مفزوعة توسع لنا الطريق لنمر.
وسمعناها تهمس: «المجد لله.. فراولة؟ وسمك؟ مجانين.
مجانين»

«مجانين».. سمعنا الكلمة ورددناها بضحك، ثم توقفنا
إذ وجدنا من بيننا «تايو» الزائيرى يتوقف ويتوجه
بالحديث ضاحكا إلى المرأة التى تضاعف زعرها:
«مجانين؟ نحن لسنا مجانين يا بابوشكا.. نحن عاقلون
جدا، ودقيقون جدا، وكل شئ لدينا محسوب بدقة

الكومبيوتر. وعائني بنفسك. عائني» ثم وجدناه، يخرج من جيبه الخلفي رقيقة الآله الحاسبة الصغيرة. فأنزلنا عنا أحمالنا والتممنا حوله وحول المرأة، مقدرين أن المرحه ستتسع.

وبالفعل اتسعت المرحه.. اتسعت إلى درجة التورط، إذ سرعان ما أقبل مارة آخرون من السوفييت وتوقفوا. ووجدنا أنفسنا محاطين بدائرة بشرية واسعة تريد أن تعرف كيف حسبناها بدقة. كيف لم يرعبنا أن تكون الفراولة مشعة أو سمك النهر ملوثا بالاشعاع. وصرنا نعاون «تايو» في تغذية حاسبه الآلى الصغير بالأرقام!!.

كنا سبعة من أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.. «تايو» من زائير، و«ريتشا» من الكونغو، و«على» من اليمن، وأنا من مصر، و«كاي» من كمبوديا، و«مناف» من بنجلاديش، ومن كولومبيا «خوان». ورحنا نملى متوسط الأعمار فى بلادنا، وكان الناتج: ٣٦ عاما للفرد. بينما كان متوسط العمر بيتنا ٢٧ عاما. فلو كان سرطان الاشعاع يقتل فى عشر سنين، فإننا سنموت قبلها بوسيلة أو بأخرى من

وسائل العالم الثالث الشائعة: الأوبئة، المجاعات، الفيضانات، القحط، السجن، والحروب المحلية. أليس كذلك؟

لم تقتنع العجوز الأوكرانية بحساباتنا وأصرت على كوننا مجانين نعرض أنفسنا بأنفسنا للتهلكة. ثم ألقى أحد الواقفين بما تصور أنه يفحمنا.. قال، إن تأثير الإشعاع يظهر في الأبناء وأبناء الأبناء.. في الأجيال التالية. الأجيال التالية؟- رددنا الكلمة بضحك ونحن نعود إلى المضى قدما بأحمالنا الثمينة، زهيدة السعر، التي خشيها الأوكرانيون وأقبلنا نحن عليها. وكان صدى السؤال يتردد في أفق كل منا بجد وضحك: وهل حقيقة ستكون منا أجيال تالية؟.

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

الأبراص

أهدانى «أركادى بيتروفيتش» المولع بالالكترونيات لحد
البراءة ولحد الجنون، جهازا صغيرا من أجهزة قياس
الإشعاع. جهاز «يدوى» خرج من بين يديه فى أيام
الكارثة بالعشرات. وكان هذا المجنون البارع يهديها ولا
يبيعها، وإن كان يقبل لقاءها الهدايا: أجهزة الكترونية
أخرى، أو كتباً عتيقة، أو أنتيكات قديمة من البورسلين
وهو لم يأخذ منى شيئا على العموم، مكتفيا بأن يضم إلى
حلم حياته - زيارة الأهرام - صديقا مصرية يصحبه فى
القاهرة.

صرت أحمل الجهاز ليل نهار، ولثلاثة أيام كاملة.. رغم
أن العداد لم يكن يُظهر أكثر من نسب الإشعاع
المنخفضة المعلن عنها، إلا أنه كان يبدأ فى الزقزقة

والصرير مع اكتشافه لأصغر جرعة اشعاعية.. فى
حذائى بعدما أعود من الشارع، وفى شعر ضيوفى
وأحذيتهم، وعند سفلى الباب وعتبة النافذة، ثم فى عشب
الأرصفة وجنبات زهور الحقائق وتحت الأشجار.. يصر
ويزقزق.. صوت صغير قمى، متداوم مثل صوت الأبراص
الذى يقودنا إلى اكتشافها على الحيطان.. ملساء، فاتحة،
مقرزة، وجافانى النوم. حملت هدية أركادى بيتروفيتش
لأردھا إليه وكنت أمسك باللفافة التى تضم الجهاز كأنتى
أمسك بجراب حية سامة، من طرفھا ومبعدا اياھا عنى..
عن سمعى. وكنت أرتب ما سأقوله.. إلى الجحيم بهذا
الجهاز الذى ملأ حياتى بالأبراص، من أول الورود وحتى
النافذة.. إلى الجحيم، فمثلى يفضل أن يموت فى هدوء
لامرئى، على أن تسقط داخل ملابسھ واحدة من
الأبراص.. ولو صغيرة لا تؤذى.

غراب غراب غراب

عندى شهود على أننى أول من أطلق حكاية الأخذ
بحيوية النباتات ووجود الحيوانات البرية والطيور كمقياس
لعدم خطورة الاشعاع.

كان ذلك فى قسم اللغة الروسية، عندما وجدت
مدرستى «نينا نيكالايفنا» فى كرب شديد مع أول أيام
تشيرنوبيل، وأردت أن أطمئنّها على سلامة كيف
فاخترعت لها الحكاية. ولما أطلت بناء على طلبى من
النافذة ورأت الخضرة يانعة وكثيفة فى كل المدينة وسمعت
شدو الطيور فى الشجر القريب جنّها الفرح. طارت فى
أرجاء المعهد تخبر الجميع بأن لا خطر هناك لأن الطيور
تغرد والخضرة مازالت فى عتفوانها. ولا بد أن الحكاية
دارت لتنتشر فى كيف كلها. لهذا أشعر بالزهو عندما

أجد عجوزا يتصايح مغالبا وهن جسده، ويتهلل نافضا
ثقل العمر، يشير إلى السماء ويهتف: «غراب غراب
غراب» إذ يلمح في الأفق غرابا يطير. ولكم كان سواد
الغراب القطيفي جميلا ومضيئا في هذه اللحظة بالفعل.
حتى أنني هتفت معضدا فرح العجوز: «غراب غراب
غراب» ولم لا؟ إنه اختراعى، ولدىّ على ذلك الشهود.

قراءة ما

لكم صرت أفتقد إنسانية الأحذية مع نهاية الصيف!
إنسانية الأحذية؟ نعم، لم أفكر فى ذلك أبدا قبل
تشيرنوبيل. بعدها، ترامى أمامى عالمها المؤثر عندما
توجب على الجميع خلع أحذيتهم خارج الأبواب اتقاء لنقل
ما للمته من أرض الشوارع المفتوحة من غبار مثقل
بالاشعاع.

كنت أخرج إلى الردهة الطويلة فأؤخذ بما تثيره من
مشاعر تجمعات الأحذية خارج الأبواب. كل ما نعرفه عن
خطرسة إنسان أو غروره أو عدوانيته أو حقه أو لطفه أو
أدبه.. كل هذا يختفى عند الحذاء.. يتجرد الحذاء تجرد
الجوهر المؤثر للضعف الانسانى الذى يتجلى فى جزء من
الإنسان ننظر إليه منفصلا عما حوله.. أذنأ أو خدأ، أو

أصبعاً، أو قدماً. ولكم قرأت في تعابير الأحذية..

هذا الحذاء المدعوك ببؤس يخص «كولا» الجهم، وهذا المائل كزورق يغرق هو حذاء (المتفذك) «الكساندر»، وهذا المعقود رباطه (بلعبكة) طفليّة هو للعبقري مارسيل، وهذا النسائي الهش لناناشا السمينّة. أما أحذية الأطفال فلکم تجرح القلب بوداعة النممة. لم أر حذاء مستفزا ولا عدوانيا ولا شرير الطابع أبدا على العكس دائما من مظاهر أصحابها، وكنت اختلق مبررات بقائي في الردهة لأواصل هذه القراءة.

ما أبأس الحذاء الوحيد أمام الباب، هذا رجل وحيد. وهناك أيضا نساء وحيدات. وهنا امرأة بلا رجل مع طفلها الصغير. وهذه أسرة من ثلاثة أفراد. وهنا يجتمع على العشاء خمسة رجال جاؤا لزيارة صديقهم. وهنا امرأتان.. فيم تتكلمان في هذا الوقت من المساء؟ والصيف يوغل. ويتقلص شيئا فشيئا عالم الأحذية.. ينحسر فيثير في نفسى الوحشة، ما أغربها من وحشة.

في البداية سافرت أحذية الأطفال إلى معسكرات

التهجير بعيدا عن المنطقة المشعة. ثم سافرت أحذية الطلاب الأجانب إلى بلادهم البعيدة فى اجازة الصيف. وذهبت أحذية النساء الوحيدات والرجال المتوحدين إلى شواطئ البحر، ربما إلى شواطئ البحر. وتوالى رحيل الأحذية. حتى لم يبق إلا حذائى وحذاء. «أنا جريجوريفنا» عاملة النظافة العجوز فى المسكن.. أه ما أكثر حزن حذاء «أنا جريجوريفنا» التى تنام وحدها فى غرفة المخزن.. حذاء رجالى كالح ومتهالك.. كبير وموحش مثل بيت قديم أيل للسقوط يسكنه - وحده - عجوز ليس له فى الدنيا أحد.

الخيريف

لم أكن رأيت خريفا كهذا، وهو فى الروسية مؤنث
لاسم يقرن بصفة الذهب: «زالاتايا أوسن»، أى الخريف
الذهبى أو الخريف الذهبية، يُكنى عنه بفتاة رائعة
الحسن. وهو خريف ذهبى حقا. بدا لى وكأن الأوراق لا
تذبل فيه، وإنما تتلون، ثم تتساقط عن الأشجار قبل أن
تزل عنها ألوانها البهية. وأى ألوان؟! كأنها لوحة حية من
الأخضر المشرق إلى الأصفر الكهرمانى إلى الأحمر
النبيذى وهناك البنفسجى والبنى أيضا. تكتسى الأسوار
والحيطان باللون الأحمر النبيذى للعنب البرى. وتصفى
فاقعة أوراق شجر الحور والدلب. ويصير شجر الشوح
بنفسجيا. أما أشجار الكستناء فإنها تصير بنية فاتحة.
مهرجان من الألوان يتفجر قبل أن تتساقط الأوراق تاركة
الأشجار عارية والطرق تحتها مفروشة بأبسطة كثيفة
من الأصفر الذهبى. نعم، خريف ذهبية. احتفال من نوع

ما.. فيه بهجة ظاهرة ملونة، وإن انطوى على حزن قاتم.
تماما مثل الاحتفال الذى تم بمناسبة اكتمال صب
التابوت حول المفاعل الكارثة. ففي السادس والعشرين من
سبتمبر، فى الساعة الخامسة مساء أعلن رسميا عن غلق
التابوت. لتصير كلمة «ساركوفاج» - أى التابوت وكأنها
ابتدعت فى اللغة وتم الاحتفاظ بها طويلا لتوقف فى نهاية
الأمر على تابوت تشيرنوبيل خاصة. فما تكاد الأذن
تسمع الكلمة حتى يتداعى إلى الذهن على الفور تابوت
تشيرنوبيل لا تابوت آخر غيره. فهو ليس مجرد خيمة
خرسانية تغطى المفاعل المنكوب. لكنه هيكل معقد من
الصلب والخرسانه يحبس فى قلبه المفاعل بطريقة تسمح
بالإطلال دائما عليه. وأعلن أن التابوت الذى جرت متابعته
ينفث إشعاعا أقل بكثير من تلك التى تخرج من المحطات
الكهرو - ذرية العادية فى هذه الأثناء بدأت عودة الأطفال
من معسكرات الشواطئ. معسكرات التهجير الكبير.
وكانت نسائم الخريف الذهبى ترق. فلا برد ولا حر. وعلى
الماشى المفروشة بذهب الخريف الهش، الخطر، الذى

كانوا يحذرون منه لتشبعه بالاشعاع، كنت أواصل طريقى
باحثا عن اللحظات الملونة التى لم يختف الحزن فيها.. بل
الشك والريبة لصق الاطمئنان. تلك لحظات الخريف.

لحظان الخريف

الإجابة

أتجه كأنما بدافع غريزى لأشاهد فيلم «شابشتكا»
التسجيلى عن تشيرنوبيل للمرة العشرين أشاهده. وأكاد
أجزم أننى فى كل المرات مكثت ألاحظ مجئ المرأة
العجوز التى يخالط عقلها شئ كأنه من جنون. دائماً
تصل فى اللحظة الأخيرة قبل اطفاء النور. ودائماً تقتعد
المكان الأوسط فى الصف الثالث من الأمام.

تأتى لقطة محاكمة عالم الهندسية النووية الشاب
فيتسع مجال انتباهى: شاب هو، فارغ ووسيم.. يقف
مطرقاً إلى جانب منصة تحاكمه فى قاعة تغص بالعاملين
فى انتقاد تشيرنوبيل، جاؤا بملابسهم البيضاء وأزاحوا
عن وجوههم قليلاً أقنعة الوقاية من الغبار المشع، فى
أمان المكان الذى تم تطهيره للتو. ويلقى أحد المحكمين

بسؤاله عن انسان، شاب وعالم، ما أن يجد الحريق مشتعلًا في المحطة التي يعمل بها حتى يسارع بالفرار. فرَّ إلى مسافة خمسمائة كيلو مترا بعيدا عن مكان الحادث. يسأل المحكم، ويضيف إلى سؤاله: ما رأيكم في إنسان يأتي بمثل هذا التصرف؟.

تدور الكاميرا ببطء على وجوه حضور الجلسة.. ببطء وصمت لا يلبث حتى يتمزق من خارج (الكادر).. من ظلمة الصالة، من وسط الصف الثالث في الامام، يرن صوت المرأة العجوز القوي مع ذلك: «اسكاتينا»، ومعناها: بهيمة. تكررهما: «بهيمة». وتؤكد على ذلك من جديد «نعم. بهيمة». ثم تندفع كريح غاضبة خارجة من الظلمة.

أنين احتضار بشري

كان واضحاً أن الكلب سيقبض حنقه على هذا النحو من الهزلة العمياء والمضطربة إذ كان يتخبط في مساره مع قواعد الأكشاك على الرصيف وقوائم مظلات الاتوبيس.. يقترب في اندفاعه المائل والمترنح من أقدام الناس الذين يتراجعون على الفور، بفزع، ينتقل إليه فيفزع هو الآخر ويبتعد نازلاً عن الرصيف إلى نهر الشارع حيث يشكل منظراً نادراً في مدينة أوربية لا تعرف كلاباً ضالة تضيع تائهة على الأسفلت. وفي وسط الشارع الواسع يمضي مندفعاً هذا الاندفاع المتهاك وكأنه يهبط على جسر شديد الانحدار، يقطع الشارع بالعرض ثم يترنح مندفعاً إلى الأمام ويعود يقطع الشارع. بينما السيارات تحيد متفادية إياه في اللحظات

الأخيرة، وبالصدفه، ويتوقف الاتوبيس حتى يتحاشى
دهسه ويلتفت الشارع الكبير كله إلى كلب مهول متخبط
يتقدم مترنحا من موت مؤكد على الأسفلت، كلب لم يمش
أبدا فى الشارع وحده، ولم يكن له أى خبرة بهذا
الضلال، منذ وقت ليس بالبعيد، وعلى مبعده خمسة
وثمانين كيلو مترا أو أقل، لابد أنه قطعها حتى يصل إلى
قلب هذه المدينة أتيا من لحظة غامضة تبدلت فيها حياته
فجأة، وصار مهجورا فى مساحات مهجورة.. مدينة
فرغت من ناسها، وبيوت لم يعد يسكنها أحد وأطراف
شاسعة من الغابات والحقول تهيم فيها على غير هدى
حيوانات أخرى تركها الناس وهم يخرجون من هذه
المساحات على عجل، تحملهم أرتال الاتوبيسات مغلقة
النوافذ وتمضى.. تخلف دنيا بلا بشر.. فقط، الخواء
والحيوانات الضائعة التى يدفعها الجوع إلى الرحيل فى
أى اتجاه، تمتد إليه الطرق، قبل أن تتصيدا عند المفارق
البعيدة طلقات بنادق تلسكوبية يصوبها رجال يرتدون
الأقنعة الواقية من الغبار الذرى. ولا بد أنه أفلت من هذه

الطلقات بالصدفة إذ دفعه ترنحه إلى أن يسلك دروب الغابات الملتوية قبل أن ينحدر ويظهر كاللظمة فى هذا الشارع، فى هذه المدينة، بعد كل هذه الشهور مذكرا الناس بتلك الأيام التى أعقبت الكارثة.. حيث كان الرعب الخفى معلقاً فى الهواء ومتسللاً إلى كل الأماكن وكانت تغلق فى وجهه النوافذ رغم حرارة الجو وتغسل الطرقات والأشجار، وحتى الحيطان، ليسقط عنها هذا الغبار المحمل برعب الاشعاع. أيام مقاطعة الحليب والفاكهة والخضروات والسّمك واللحم الطازج ومياه الصنابير. أيام كل الأبواب لتأخذ ما علق بالأحذية من الغبار. أيام الإجهاض بالجملة، والرعب من الإنجاب، وعدم الانجاب. أيام ترحيل الأطفال الجماعى بعيداً عن المدينة. هذه الأيام. أيام كان يحملها الكلب الهزيل المتضور من شدة الجوع، والذي كان واضحاً أنه فقد بصره ويمضى بآخره مألديه من حاسة السمع والشم إذ ظل رأسه مطأطئاً وبوزه يوشك أن يتخبط بالأسفلت المبلول لفرط اقتراب من الأرض. ثم تلك الحركة التى أتى بها فى اتجاه الترولى

المبطل والذى كان بعيد عنه فى نهر الشارع المقابل
البعيد.. اتجه إليه مندفعاً فى هرولته، كأنما ضلله مصدر
الصوت، حتى قاده إلى الوقوع تحت العجلات بنصفه
الخلفى. عوى مرة واحدة فى ألم ورعب، ثم انكشف عنه
جسم الترولى وكشف عن هذا الامتحان الشديد والصعب
لكل الواقفين والماضين فى الشارع والذين استداروا
جميعاً يشاهدون كلباً ألصقه بالأسفلت نصفه الخلفى
المدهوس والمدمى. فيما راحت العربات المسرعة، والتي لم
تكن تتبين لثباته النسبى فى موضعه، تلطمه وهى تحاول
تفاديه فى اللحظة الأخيرة. كان واضحة أن الألم يعصف
به مع أقل حركة، فبقى على وضعه، وضع واحد كأنه
يزحف بلا حركة مرسلاً عواءه الواهن. ثم ان السيارات
مع تناقص ضوء النهار راحت تمر عليه فيعوى وهو
يندهس عشرات المرات. عواء مثل صرخات استغاثة،
انفعل لها طفل صغير، بالصراخ، وأنه مشيراً إلى الكلب
الذى ينهرس على الأسفلت. لكن أمه المروعة شدته إليها
برعب فائق رعب يعادل الرعب من تلقى جرعة مكثفة من

الاشعاع المخيف حملها المسكين معه عبر رحلته الطويلة
وانتهى بها إلى هذه البقعة التى التصق بها. كومة
صغيرة.. كومة صغيرة راحت - مدمّاه - تتسطح رويدا
رويدا على الأسفلت وينبعث منها أنين يهن شيئاً فشيئاً
فكأنه أنين احتضار بشرى.

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

لا حرائق هذا الخريف

كانا فى زى المرضى الأزرق الرمادى، وكنت إلى
جورهما على أحد الأرائك تحت شجر الكستناء الكبيرة
فى ظهر قسم التحاليل. ولم يكونا يعيران وجودى التفاتا
كشأن المرضى المزمنين المأخوذين بعواملهم الخاصة
ودواخلهم. ثم أننى لم أكن أرتدى المعطف الأبيض ولم
أكن معروفا بعد كطبيب فى مستشفى الأمراض العقلية
الكبير «بافلوف». وكانا واقفين بتجاور فى عالم الحديقة
الساكن الواسع. كان أحدهما يتكلم.. فيما يبدو الآخر
مردداً لكلامه وكأته رجع الصدى:

– «الخريف يحتضر».

– «أه، الخريف يحتضر».

وكان خريف «كفيف» الشهير بالخريف «الذهبي»

يحتضر حقا مؤهلا الدنيا لاستقبال أول الثلوج فى
غضون أسابيع، وقد مكثت أراقبه - هذا الخريف -
بعيون الغريب المبهور منذ تحولت الخضرة الكثيفة إلى
مهرجان من الألوان قبل تساقط الأوراق.. صارت أشجار
الشوح الخفيفة بنفسجية، واحمر العنب البرى على
الأسوار حمرة نبيذية صافية، اصفرت - صفرة
كهرمانية- أوراق الكستناء والدب. خريف مذهل الألوان
أقنعنى بأن الأوراق لا تذبل فيه بل تتساقط قبل ذبولها
صفراء ذهبية تغطى الطرقات والأرصعة، فكأن الأرض
تكتسى بهذه الصفرة الحية وتظل حتى تكتس الأوراق
وتكوم فى كومات يتم احراقها باحتفالية سمعت عن
طقوسها كثيرا وهى لن تكون أبدا فى هذا الخريف.

- «يحرموننا من حرائق الخريف.. يحرمون الأرض»

- «يحرموننا من حرائق الخريف»

كانت زوراق الشجر قد تم كنسها وتجميعها فى
أكياس كبيرة من البلاستيك الخفيف الأسود. وقفت
مكتظة تستند على جذوع الأشجار هنا وهناك فى حديقة

المستشفى، تنتظر العربات التى ستأتى لتحملها بعيدا .
بعيدا جدا . قيل إلى «سيبيريا» حيث سيتم دفنها كنفايات
مشعة فى الجليد الأبدى هناك قرب القطب . وستظل حتى
نهاية العالم . حتى نهاية تحلل آخر عنصر مشع تشربت
به جراء تعرضها لهواء كارثة الربيع .

- «سبتجوع الأرض»

- «الأرض ستجوع»

كان القصير السمين ذو الشعر الأحمر يكرر قول
الطويل النحيف، كأنه رجع الصدى . صدى هادئ أحادى
النبرة يرتد عن جدار رخو . وكأنا يتأملان العالم ببطء ..
حديقة المصحة شبه الخالية وبناية قسم النساء فى الأمام
وعنابر الرجال هناك، ثم الغابة التى تهبط مع انحدار
المرتفع الذى تتسمنه المصحة . غابة داكنة بذؤابات الشجر
العارى من الأوراق . وكيف هناك تعلو وتهبط سباحة فى
البساتين . التى تجردت من خضرتها .. بيوت بيضاء بين
هامات الشجر العارى الكثيف وقباب الكاتدرائيات
المكسوة بالذهب الخالص تلمح فوق مرتفع «البادول»

وضفاف «الدينير».

- «الورق المحروق يعيد تغذية الأرض لتعطى الخضرة

من جديد».

- «تخضر من جديد».

كان الطويل النحيف متوترا بينما القصير المنفوخ يبذو ساكنا كقربة مشدودة. لاح لى أن القصير يعانى من الفصام الكتاتونى (التخشبي)، بينما شخصت الآخر كمصاب بالفصام الوجدانى - اكتئابى النوع، وان بدا لى معذب النظرات وهو يدور بعينيه الصافيتين فى الحديقة الخالية والعالم الواسع.. الأشجار العارية والأكياس المعبأة بورق الخريف، وطابور من المرضى المهولين هناك باتجاه قسم العلاج بالعمل، ويضع نزيلات يقبلن من عند المطابخ حاملات دلاء الطعام ذات الطلاء الأزرق البنفسجى اللامع. ثم المدينة المبعثرة هناك وسط دكة الأشجار.

- «جريمة ألا تتغذى الأرض»

- «أه جريمة».

كان النحيل يرتعش ممتلئاً بهذه الفكرة. وانتبه برهة إلى وجودى إذ كنت أمعن فيه. لكننى بكل ما أملك من خبرة سابقة تهدلت فى جلستى حتى أبدو له لا شئ. أبدو كواحد من المرضى الساكنين الممتصين فى دواخلهم. وبالفعل انصرف عني سريعاً إلى ما يموج فى داخله من افتقار واضح لحرائق الخريف التى لابد كانت تحمل له ذكريات خاصة.. ذكريات بعيدة وعزيزة وإن ذبلت. وعاد يلح من جديد ممتلئاً بذلك الهاجس..

- «لابد أن تتغذى الأرض.. حرائق الخريف.. لابد. لكننا لو فتحنا الأكياس، سيخطفنا ستالين.. سينفينا إلى سيبيريا.. أنا أعرفه لا يرحم.. هو الذى قال لهم عبثوا الأوراق فى أكياس برياء السوداء..

أكياس سوداء مثل قلب برياء. هو قال. ينبغى ألا تجوع الأرض.. ينبغى ألا تجوع. تجوع لا. لا»

كان قد أمسك بصاحبه القصير هازاً إياه من كتفيه الرخوتين. فيما لم يُبدِ هذا أى انفعال غير أنه كان مهتما برفع سرواله السائب إلى أعلى بحركة آلية. وكان الطويل

يقوده وقد مكث ممسكا بكتفيه بينما يداه العظميتان
الكبيرتان ترتعشان انفعالا. ولعله ارتعاش الاستخدام
الطويل لعقار «الاميتازين». ثم إنه رفع يديه عنه، وأشار
إلى الأرض مشرقا بفكرة لا بد أنها واثقة لتوها:

- «سنصنع حريقنا دون حاجة إلى أكياسهم القذرة.
أكياس بريا السوداء القذرة. لن يفتح ستالين فمه. ماذا
يمكن أن يقول. سنفحمه يا فاليري نيكالايفتش. أيها
العزیز فالیری نيكالايفتش. سنفحمه. أيها العزيز المقدس»
وطفقا يجمعان الأوراق القليلة التي لم تكنس جيدا
وتوضع في الأكياس. بدا أنها نادرة بالفعل إذ كانت
التنبيهات مشددة بجمع هذه الأوراق الملوثة بالاشعاع.
والتي يمكن أن تغدو مصدرا أبديا للتلوث الاشعاعي لو
أحرقت أو تحللت وأضيفت إلى تربة الأرض لتمتص منها
النباتات والأشجار. دورة خبيثة من تداول الاشعاع تهدد
أرض «كييف» إلى الأبد. وكانا أن جمعا بضع أوراق قليلة
بعد أن دارا طويلا حول الأشجار. بضع أوراق صنعا
منها كومة صغيرة مضحكة. كومة بائسة وانحنيا عليها

باهتمام شديد وهما يحاولان اشعالها بثقاب ن علبة
متهرئة.

- «احم النار يا فاليرى نيكالايفتش. يا صديقى
العزیز أیها المقدس. احم النار المقدسة. لن تجوع
الأرض. ولن يمسك علينا ستالین شیئا إلى الشیطان
بأكياس بریا السوداء. إلى الشیطان الأسود. المجد لله.
اشتعلت»

- «اشتعلت. اشتعلت. اشتعلت» .

وبدیا متهللين وهما يداريان على كومة أوراق الخریف
البائسة التى أخذت تدخن كانا مثل طفلین عجوزین
يفرحان بعالم النار الصغيرة. وعندما أجّت مشتعلة نهضا
مبتهجين يفركان أكفهما فى نشوة. والنحیف الطویل يقود
القصیر الممتلىء.. كأصل وصورة فى مرآة غريبة. وكنت
أراقبهما ماكثا على وضع التهدل والتقوقع فى جلستى
بقربهما. حريصا ألا أخرجهما مما انشغلا به. وفجأة
علت نبرة صوت الطویل النحیف فى ثقة، ثقة أخذت أنا
نفسى بها:

- «انظر يا صديقى فاليرى نيكالايفتش. أيها الغالى
أنظر إلى انتصارنا. أنظر. المجد لله. لقد بدأت حرائق
الخریف تشتعل. تنتشر هنا وهناك. أنظر. المدينة تقاوم.
لقد صنعنا الشرارة الأولى. وها هي النار المقدسة تشتعل.
حرائق الخريف تشتعل. رغم أنف أكياس برىا السوداء يا
عزيزى فاليرى نيكالايفتش أنظر أيها العزيز. فى كل مكان
تشتعل».

وكان يشير هنا وهناك باصبع مرتعشة، يقينية، وعيناه
الصافيتان تأتلقان بوميض غريب. وميض من يرى حرائق
أوراق الخريف تشتعل هنا وهناك حقا فى المدينة، ويتصاعد
دخان حرائقها من بين مساحات الأشجار ومن خلف ظهور
الأبنية وحول القباب. كان يتصايح بتهلل ناقلًا تهله إلى
صاحبه الذى راح يرتج فى بهجة.. يصدر صوتا كزومان
طفل يجن فرحا بالحرائق الأليفة التى استطاع أن يراها
حيث يشير الدليل.. باتساع ساحة البصر. وبدا لى الخريف
موحشا، وكيف هناك، تتناثر بيضاء شاسعة، بين نؤابات
الشجر القاتم العارى، ولا دخان هناك أبداً لا دخان.

الشفقة

يبتدىء الشتاء نفسياً بهطول أول الثلوج. يصحو الناس
من نومهم فيجبون الدنيا بيضاء.. ناصعة. بياض جليل
يغطي الدنيا، وتستجيب له النفوس وكأن الثلوج تغمرها
مثل الأرض. فتحت الغطاء الأبيض ينام العشب والبنور
والجنور. وتحت سطح النهر المتجمد والبحيرات لا تكف
الأسماك عن الحياة والحركة فى تيارات الباطن الدافئة
العميقة.

نزلت الثلوج مبكرة وكثيفة فى هذا العام لتترافق مع
الانتهاء من طلاء التابوت بدهان معدنى مقاوم للصدأ من
اللونين: الأبيض والأخضر. لماذا هذان اللونان؟ وما
مغزاهما؟ الثلج والخضرة! غطت الثلوج الأرض وراحت
مكائن جبارة تكشط قشرة الأرض حول تشيرنوبيل بغية
نقلها ثم قبرها بعيدا.. أبعد ما يكون وأعمق ما يكون. فى
ثلوج سيبيريا الأبدية قرب القطب المتجمد. أما ثلوج كييف

المؤقتة، فانها راحت ترتفع فى هذا الشتاء غزيرة كما لم يحدث أبدا من قبل. وكان ذلك مدعاة للفرح - قبل تشيرنوبيل، أما الان فما أشد الخوف الذى استدعى اقامة سدود التصفية، ومصائد الطمى، حتى لا يتلوث النهر عند النويان الثلوج وحدث فيضان يغمر الضفاف ويعود ساحبا معه إلى المجرى كل ما كان يختبئ من اشعاع طمرته الثلوج. وعلى مقربة من كيف كانت الثلوج تغمر مدينة كاملة لا يسكنها أحد، وربما ستظل لعشرات السفين مهجورة. مدينة بريبيات التى بقيت الملابس المنشورة فى شرفاتها تخفق بون أن ترفعها يد منذ أيام الربيع. وكانت أضواء المرور تنظم حركة لا وجود لها فى شوارع المدينة المهجورة. شتاء موحش يوحى بأن كائنات شتى فى دائرة الأرض المحرمة (ونصف قطرها ثلاثين كيلو مترا) راحت تغمرها الثلوج. وفى كيف كانت الحياة تمضى بايقاع الشتاء الكتوم. كانت هذه هدنة، ولم تكن نهاية. وعلى الثلوج التى لم أخش شيئا قدر خشيتى من المشى فوقها، كنت أخطو ببطء يصل إلى درجة الوجل،

ناظرا إلى مواطني قدمي في البياض الناصع، ورافعا بين
الفينة والفينة وجهي إلى العالم.. أجمع ما يطل برأسه
عبر غطاء الثلوج من لحظات بقيت لتشيرنوبيل.

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

ليظلك الشك

تزحلق على الجليد

الناس الذين سرق منهم رعب الاشعاع مرح الصيف،
يخرجون إلى ملاعب الشتاء القارص وكأنهم يخرجون
لملاقاة الربيع.. جحافل - على غير العادة - تغادر دفاء
البيوت في ملابس الرياضات الشتوية نحو ساحات
الجليد.. البحيرات المتجمدة في حدائق المدينة وبين غابات
الصنوبر عند الأطراف. وأجد نفسي مجتاحا بهذا
الخروج وسط مجموعة تحمل الزلاقات الخشبية وأحذية
التزحلق. يرف حولي فرحهم الزائد، وأمتلئ بالتشوف
والوجل.

«هيا.. هيا.. حاول.. حاول»- يعلموننى كيف أتحرك وفى
قدمى حذاء الجليد لكننى ما أكاد أخطو خطوة حتى

أتبعثر هاويا على الأرض. يوشك أن يندق عنقى لولا كثافة ما أرتديه من دثار يمتص الصدمات وكل محاولة فاشلة تزيد من رعبى فيزيد ارتباكى. وهم يجهدون أنفسهم فى تعليمى كيف أنطلق: «أن ألبث قدمى بكامل مساحاتيهما فى الأرض ألا أترك ظهرى ينطرح إلى الخلف. ألا انظر إلى مواطئ قدمى». نصائح أحاول تطبيقها دون جدوى. ويقترب من كان يراقب الموقف فى صمت، ويعترض على طريقة معلمى...

«لا لا لا علموه أولا كيف يقع» ويبادر إلى تعليمى ذلك، بنفسه.. يعلمنى كيف أسقط أرضا وأنا أتزلق.. كيف ألم جسدى فى اللحظة المناسبة عندما أحس باختلال توازنى، وأمتص صدمة الوقوع بهذه الأجزاء المحمية عظامها بغطاء جيد من العضلات: الأفخاذ.. المؤخرة.. الظهر.

كيف أقع؟ يالها من فكرة أتحمس لها. وأتعلم بالفعل كيف أقع. مرة ومرة ومرة. وإذ بى لا أخاف من الانطلاق. أنطلق مشوارا لا بأس به لكننى فى النهاية أقع. الوقوع الذى لا أخافه حتى أنتى أمكت ضاحكا حيث وقعت..

مضطجعا على الجليد أتأمل ساحة التزحلق الواسعة
المزحومة: ساحة الماء الذي تجمد كاتما تحته ما تساقط
من غبار لوّثه الاشعاع. فرجة من الوقت لمراح الانسان
يلتقط خلالها أنفاسه، لعله يتدبر ما سيكون

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

ما بعد العشاء

لم أصدق عيني عندما دخلت ورأيتَه يضع أمامه للعشاء، مع الجبن القديم والبيض، حلقات «الكالباسا».. اللانشون الذى كان يقاطعه بحسم لشبهة أن يكون فيه لحم أو دهن خنزير. ودعاني لمشاركتة عشاءه وهو يتربع على السرير كعهده، فى الكالسون الواسع وفانلة الفلاحين البنية ذات الأكمام وفوقها الصدىرى. وكان يمضغ ببطء متضجر، ويلقى فى فمه باللقيمات كأنه يتخلص من واجب ثقيل.

ما الذى حدث؟ سألتَه. فأصدر هذا الصوت الغريب من بين شفثيه.. لم يدلنى على شىء، وكان مختلفا.. هو الذى بدا كأنه جاء من مصر ليعيش فى مصر وسط هذا الشمال الأوروبى وعلى الرغم منه.. غرفته غرفة طالب ريفى مصرى، رغم الدكتوراة التى يعد لها و«الميكروبروسييسور»

الذى يدرسه.. زلعة الجبن القديم، وأكياس الملوخية
الناشفة، وعقود البامية المجففة، وصورة كبيرة لعبد
الناصر على الجدار، وإطار به أية الكرسي، وصور
لزوجته المحببة وأطفاله الثلاثة.. ثم البورى وكيس المعسل
وعلبة الفحم. واستمر يزدرد طعامه بتثاقل مغموم، دون
أن يجيب على سؤال. فعادت السؤال. لم يجب من
جديد، لكنه أشار إلى خطاب تلقاه، وكان مفتوحا على
طرف الوسادة بجانبه، فتناولته. كان الخطاب من زوجته
ترسل إليه بالسلام والأشواق وتحديثه عن شئون الأسرة
وأحوالها، ثم لفتت نظري فقرة تقول فيها: «وأنا محتاره
وخايفه على أحمد لأنه كما تعرف لا يرضع من صدرى
ويعتمد على اللبن الصناعى من يوم الالتهاب الذى حدث.
وقد اكتشفوا أن ألبان الأطفال الموجودة فى مصر جزء
من أطعمة ملوثة بالاشعاع فى المانيا لما مرّت عليها
سحابة شرنوبل الذرية. وكانوا فى المانيا سيعدموا هذه
الأطعمة لكن التجار المصريين راحوا واستوردوها فى
السر بتراب الفلوس ودخلوها بالبراطيل فى مصر. وأحمد
مثله مثل عيال فاس كثيره رضع من هذه الألبان وأنا

مفزوعة والناس كلها فى رعب على عيالها لأنهم يقولوا أن هذه الأطعمة والألبان تسبب التشوهات والسرطان والجنون. وأنا مرعوبه وخايفه خالص. ياريت تكتب لى جواب بسرعة تطمئننى».

طويت الخطاب، ووضعته فى مكانه على طرف الوسادة دون أن أتكلم، وكان هو قد أنهى عشاءه وذهب ليعد الشاى ويسوى للبورى بضع جمرات من الفحم على لهب موقد الغاز فى مطبخ الطابق. وفكرت فى أنه يشق طريقه الان فى الردهة العمومية، بسرواله الواسع وفانلة وصديرى الفلاحين المصريين والبلغة.. غير مكترث بنظرات العيون الملونة من حول وشعرت بافتقاده وسط الغرفة التى تستقر فيها «الذلع» على الأرفف إلى جوار المراجع العلمية بينما كانت صور أطفاله وزوجته وآية الكرسي وصورة عبد الناص الكبيرة.. كلها على الجدار، تتوالى حتى إطار النافذة الزجاجية العريضة. حيث كان الثلج المتساقط فى الخارج يبين غزيرا.. أبيض.. كستارة من الدانتيل الناصعة تهتز على سواد الليل.

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

أخيراً

فجأة أكتشف أن الباص الكهربائي الذى أجلس فيه، يشق طريقه وسط عالم من المقابر، تنتأ شواهدا الداكنة عبر الثلوج.. مقابر فى الأمام، ومقابر فى الخلف، ومقابر على الجانبين. إنها منطقة «البابيار»، مرّ الباص بها وأنا فيه - مائة مرة من قبل وأكثر - دون أن أنتبه إلى هذا الحداد الممتد. فأهبط مشدوداً إلى هذا الموت الموحش وسط الثلوج...

بلاطات نائمة بطول النعوش التى دفنت فى الأرض، مصطفة يكسوها بياض الثلج الناصع وتقوم على رؤوسها الشواهد.. لوحات من الرخام والجرانيت، داكنة كلها، منقوشة عليها الصور وكلمات الوصايا والوداع، وهنا وهناك تتناثر أكاليل زهور ذابلة وأخرى فى طريقها إلى

الذبول. وأنا أتحرك فى ساحة الموت الساجى وسط
البياض.. أفتش عن شاهد لواحد قضى فى تشيرنوبيل.
أعثر على شواهد ضحايا الحرب العظمى، وشواهد
ضحايا الحرب الأفغانية، وشواهد الموتى بلا حروب.
كلمات أوصى بنقشها على قبورهم الراحلون، وكلمات
أخرى.. من حبيبة تعاهد الراحل على الوفاء إلى الأبد، أو
أم تذرف كلماتها الدموع على ابنها. وأجد فى بحثى عن
شاهد قبر لواحد من ضحايا تشيرنوبيل وكأنه يخصنى.
إن عبارة واحدة لا تشير إلى ذكرى الكارثة، لكننى
أخيراً أعثر على شاهد أرجح بملايسات تاريخ الوفاة
وعمر المتوفى ومهنته ومكان الإقامة أنه قضى إثر
تشيرنوبيل. وكلمة واحدة ينطق بها الشاهد.. محفورة
بعمق فى كدنة الجرانيت الرمادى تقول: «باطشمو»..
ومعناها: لماذا. وأحب أن أترجمها فى داخلى: ليه؟..
وعلشان آيه؟

(۲)

طوابير موسكو ۹۰

أو بوف

تمضى متسكعاً فى شوارع موسكو الرحيبة. أول يوم بعد غيبة عام ونصف. هل هى بالفترة الطويلة؟ ليست كذلك تقول لنفسك إن العالم تغيّر كثيراً. تحس بذلك أكثر مما يمكن أن تقول كيف. ويهبط عليك المساء مبكراً.. الظلمة الشفيفة والتماع الطرقات والأرصفة المبلولة ولجج المياه المنتشرة. حتى شتاء موسكو الذى كان راسخاً تتغير طباعه فدرجة الحرارة تتأرجح حول الصفر. تصعد فى النهار قليلاً وتهبط مع الليل. لكنها تعود إلى الصعود من جديد. تذوب الثلوج ببطء وتتحول إلى وحول بيضاء ولجج هنا وهناك، بلل ورطوبة والحزن الروسى الراسخ فى الليل لا تبدده أضواء الشوارع، المصابيح المتوحدة والإعلانات الملونة التى تكاثرت. وثمة أسماء أجنبية

تومض وتنطفئ. تومض وتنطفئ أو تغير أشكالها وألوانها
بنعومة. لكن هذا كله لا يحرك الحزن الكامن في الليل
الروسي. تحس أكثر مما تعرف أن تقول كيف. فأنت في
جوه هذا التسكع تبحث عن يقين، وتمضي. منتش أنت
قليلاً بلسعة الهواء الخفيفة الباردة لجبينك ويداك في
جيوب سترتك تنعمان بالدفء. وعيناك تجولان في المدى
الشاسع للمساء ثم تتوقف على رصيف مبلول في شارع
جوركي زاوية مسدودة بطابور مزدوج يمتد طويلاً أمامك
وينتهي إلى باب موارب. لا لافتة ولا إعلان ولا رقم على
الباب الخشبي الثقيل. يشبه أبواب المسارح القديمة. وأنت
في الركن القديم من الشارع القديم. تحس بدبيب فرح
مرهف وسط نسائم المساء المبتردة الشفيفة. إذن يظل
هناك مكان للروح. يظل هناك كل هذا التزاحم على
الجميل في مواجهة المبتذل. على الأعلى صعوداً عن
الأدنى، إذن يبقى شيء. تقول في نفسك ذلك وتفرح بسحر
الفن الذي شرّد أقدامك وجعلك تملك قلبك. لكن هاجساً
تعيساً يراودك وأنت تتملى الطابور، فهم يتضاغطون

بتحفز وربما بشئ من الكراهية لأنفسهم وللعالم. عيونهم التي تتهرب من عينيك المتفحصتين، التلويحات الصغيرة العصبية التي ترد عى سؤالك: ماذا يُعرض هناك. وينفتح الباب الموارب فكأن بناءً قديماً ينهار أمام عينيك يتدافعون بغلٍ يتفرط فى فوضى صغيرة وتسابق مسعور إلى الدخول. ينهار الطابور وتكتشف عافية الأجساد المتدافعة. كيف غاب ذلك عن رؤيتك؟ إنهم على الأغلب من صغار العمر. صبايا يافعات وشبان. ماذا هناك؟ ماذا هناك؟ تتسائل بإلحاح ممسكا بأى ساعد على حافة الفوضى. بأى يد. بأى طرف من أطراف التدافع الأصم. لكنهم ينترون يدك. ويشيخون عن سؤالك: ماذا هناك؟ ماذا هناك؟ وأنت تلح : ماذا هناك. ولعل يدك كانتا عصبيتين أكثر من اللازم وأنت تمسك بذراع من تسأله تشدد يدك أكثر من اللازم. وتُشدّد على السؤال: ماذا هناك؟ فيرمى الإجابة فى وجهك بغيظ وبشئ من الكراهية.. يدعك عنه وهو يصرخ فى وجهك الذى ربما بدا له فى هذه اللحظة أغبى مما يتحمل: «أو بوف» أو بوف !!! - تردد الإجابة

وأنت تمضى متحيراً.. إنك تعرف معنى الكلمة معجماً
لكنها تذهلك فى هذا الموضع. تمضى وصداها يتردد فى
ذهن. وكأن شارع جوركى العريض استحال إلى تكوين
هائل لإرسال الصدى من كل صوب. كل شئ يعكس عنه
الكلمة فتترجّع.. عن لمعة الأسفلت الذى أوسعوه منذ
سنين بحمل عمارتين قديمتين هائلتين إلى الخلف دون أن
تسقط منهما لبنة. عن نجمة الكريملين الياقوتية المومضة
فى أفق الليل غير بعيد. عن توهج المصابيح بالنور. عن
تلاعب اللافتات المضيئة. عن واجهات المحال والمكتبات..
أو بوف. أو بوف. أو بوف.. تجيئك من كل صوب وأنت
شارد لاتكاد تصدق أن الكلمة معناها: أحذية وتعيد
ترجمتها فى شرودك وكأنك تريد مطابقتها على رجع
الصدى: أحذية. أحذية. أحذية. أحذية.

مع الذاكرة ضد الذاكرة

لم يعد وقوفهم ممكناً في حديقة «بوشكين» المفتوحة بينما يهب هذا الهواء الشتوى البارد. لهذا تراهم يلونون ببعض الدفء في تراحمهم على الرصيف القريب.. بين بناءة جريدة «موسكوفسكى نوفوستى» والأكشاك التى تباع عصير «الفانتا» وتذاكر المسرح ثم إنهم يتواجدون أيضاً فى النفق الموصل إلى محطة المترو. وكما هى عادتك الملحة كلما كنت فى موسكو تذهب لتندس وسطهم.. تسمعهم وتراهم كظاهرة غير مألوفة فى بلد كهذا. ولأنهم انتقلوا من مساحة الحديقة الواسعة إلى ضيق الرصيف ومحدودية النفق فإنك تحس بالزحام يضغطك وتتقلت بصعوبة لتنتقل بين حلقاتهم وتجمعاتهم

العديدة. لكنك بعد قليل تكتشف قانوناً للمرور ببسر وسط هذا التزاحم فثمة ترقية لا شعورية - جمعية - جعلت الآتين يمرور فى قطار بشرى وسط الزحام والذاهبين يمرون فى قطار آخر مواز وملاصق ويمضى فى الاتجاه المعاكس. تضع نفسك فى أحد الاتجاهين وتمر بهم. فهل تغيروا؟ إنهم لم يعودوا يحملون لافتات مطالبهم على صدورهم لم يعودوا يكتفون بصنع حلقات نقاشهم المتساحب. وفى نفس الوقت لم يعد رجال «الميليشيا» يظهرون هنا وهناك فى حالة الترقب تلك - بين حلقاتهم. فقد صاروا الآن يطبعون أوراقهم. صاروا يحددون هوياتهم. ويلصقون أوراقهم على الجدران فى تلك المساحة من الرصيف وفى داخل النفق وتميل لتتنظر إلى ما بين أيديهم..

مجلات مختلفة فى وريقات قليلة. مطبوعة بالماستر أو منسوخة على الروليتو. «الحرية».. و«الاختيار» و«برنامج الجبهة الشعبية الروسية» «الحقيقة» وحتى «الجنس» ومقالات مترجمة عن «التايم» و«النيوزويك» و«البلادى بوى»

وتتوالى على سمك النداءات التى يروجون بها لأوراقهم
وأنت تمر بهم.. يدفعك قطار الأجساد المتزاحمة السارى
وسط الزحام: «الحرية.. لأجل حريتك ولأجل حريتنا»
«يلتسين يفحم جورباتشوف عدة مرات فى اللجنة
المركزية» «من هى رايسا» «أشياء غريبة تحدث فى
موسكو» «لا تخاف الحكومة ولا تخاف الـ «ك. ج. ب»
وتستدير لتضع نفسك فى الطابور الراجع، أنت تريد
الإمعان فى الوجوه والملابس تحب فى قرارة نفسك لو
تراهم نشازا. لماذا؟ هل شخت حتى أنك صرت تفضل
الاستقرار وعلى أى نحو؟ أم أنك تقف مع من ترعبهم
الفوضى فى بلد كهذا مازال يكون ثقلاً أساسياً فى
ميزان العالم تتملى سحنهم وهيئاتهم. على السياج
الجانبي للدرج الهابط إلى النفق رصوا أوراقهم التى
ينادون عليها. فى البداية تؤكد مناظرهم انطباعك.. شعور
سائبة ولحى مرسلة ومعاطف مهمة أو متسخة وتلك
المعاطف الجلدية القديمة المتأكلة أو المثقوبة عند المرافق.
هل هم مجرد فوضويين؟ وهنا وهناك فتياتهم معهم فتيات

صغيرات يدخنّ باستهتار ونهم. لكن انطباعك الأول ما يلبث حتى يتاكل شيئاً فشيئاً. فهاهم أيضاً بشر مهتدمون سحن «الانتلچينسيا» التى تشع بالرهافة والتدقيق. من كل الأعمار وكل الهيئات وتتوقف لتصفى إلى نقاشهم. بالأرقام وبالتواريخ وبفقرات كاملة من المراجع يتقارعون إنهم الروس الذين توقن فى قول «دوستويفسكى» عنهم بإنهم موهوبون لكنهم يفتقدون الشكل.. أرواح مبدعة ونزوع إلى التدمير ثم الشعور الساحق بالذنب. هل قال بذلك «براديينف» أيضاً وهو يشرح دوستويفسكى؟. وتصل أخيراً إلى حلقة من حلقات القوميين الروس. جماعة الذاكرة فيما تظن. أنت فى قرارة نفسك لا تطمئن إلى كثير من اليهود لأنهم يفاجئونك دوماً بقلوب صهيونية لكنك تفزع عندما تسمع هذا الصوت العالى الخشن.. لكنته أهل لينتجراد المليئة بالحروف: «يا عالم نحن قلناها كلمة. نحن لن نستطيع العيش مع اليهود. لابد أن يعودوا إلى المكان الذى سُمح لهم بالإقامة فيه. لابد أن يمنعوا من دخول موسكو ومدننا الروسية كلها ويحتدم النقاش

ويوشك أن يصل إلى درجة التماسك بالأيدى. أنت عربى
وبينك وبين الصهيونية بحر من الدم والمرارة والآلم. لكنك
مثقف إنسانى أيضاً. يفزحك الخط. فأنت تعشق كافكا
وكتاب تفسير الأحلام وجمالية نسبية اينشتاين وتعجبك
بافتتان جداريات شاجال. يفزحك الخط. وتشعر بنواة
الأنقلابات المريعة فى كل صوت عال. فى كل صوت
سوقى. وتبتعد غير مطمئن تفكر فى احتمال أن يكون
الصهاينة أنفسهم هم المشعل الخفى لهذا الفتيل.. حتى
يتزايد عدد المهاجرين من اليهود السوفييت إلى اسرائيل
بدعوى الرعب من نار اللاسامية. لم لا؟ يفزحك الخط
وأنت تمضى فى الطابور الخارج من هذه البؤرة. وتفكر
فى آفاقها. هل تبقى مجرد بؤرة للتنفيس؟ أم أن هذه عينة
من وجع كبير فى هذا البل الكبير. الثقل الكبير فى ميزان
العالم الذى سيسحقنا - أول ما يسحق - اختلاله..؟
وتمضى بعلامات استفهامك المعلقة.. تروم مكاناً فسيحاً
تتنفس فيه أحسن بعيداً عن هذا الزحام.

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

على حرف

الجانب الآخر من حديقة ميدان «تفيرسكى» فى مواجهة المقهى الصغير الجميل المعلق ومحل أرمينيا الذى يذكر اسم بزلزال قريب ونيران مازالت تشتعل هناك. تتأجج ثم تخبو لكنها لم تنطفئ بعد فتمة دماء أريقت ويطون بقرت عن أجنة نائمة وأجساد بشرية تم إلقاؤها من فوق البنايات. ثم موجات من هجرات بشرية مرتاعة تهرب من طوفان غريب طوفان استيقاظ الدماء القديمة فى العروق التى تم تفريغها من مكونات خلقتها الأولى بتسرع. وربما بفضاظة. لهذا تعود إلى سيرتها الأولى بتوحش.

صراع القوميات الدامى. أزيبيجان أرمينيا وتنتقل من اسم أرمينيا إلى الجانب الآخر من الميدان. وفى أعلى

الركن الخلفى تتوقف ببصرك عند الحرف «M» الذى
يبتدىء به الإعلان المضى المعلق M» الذى يبتدىء به
الإعلان المضى المعلق M» بىضاء فى شكل روسى الكتابة
على خلفية العلم السوفيتى الأحمر وتهبط عن الحرف
فتكتشف أنه كان بداية لاسم «ماكدونالد» الأمريكى. إذن
هذا مطعم ماكدونالد الذى افتتحه الأمريكان فى موسكو.
لم يكن هنا منذ عام مضى عندما جئت ودخلت مع
صديقك إلى المقهى الروسى الدافئ فى نفس المكان.
تتذكر الخشب الجوزى الذى كان يكسو الجدران كلها.
والمصابيح الأليفة المدلاة من السقف. والبنات الورديات
خلف الطاولة حيث كان «الساموئيل» الروسى لتقديم
الشاي ساخناً باستمرار وجهاز صنع القهوة والمفارش
المطرزة التى تغطى الصوانى وتتراص عليها الفناجين
المنقوشة من بورسلىن ليننجراد. تتذكر أنك طلبت شايًا
وقطعة من حلوى «البىروچنا» بالكريم وكذلك فعل صديقك.
وكان فى الركن القريب بعض من المثقفين السوفييت
يتناقشون فى مسائل جمالية تبينت منها أنهم سينمائيون.

الآن لا يمكنك الدخول لتطلب فتجاناً من الشاى الساخن وقطعة من «البيروجنا» وتتحدث مع صديقك فى بساطة الدفء فخلف النوافذ الزجاجية للمكان التى نزعوا عنها ستائر الدانتيل يلوح زحام البشر هناك. من نجحوا فى حجز أماكن للغداء عند «ماكدونالد». تراهم مغتبطين ومتزاحمين كأنهم فى مطعم متقارب الموائد لسفينة بعرض البحر. كأنهم مغلفون هناك فى صناديق زجاجية للعرض. وأنت لا تستطيع مجرد الاقتراب من الباب الذى يقع على مدى بصرك. فثمة زحام غريب. وحواجز تنظم الدخول والخروج. ورجال «ميليشيا» فى زيهم الرسمى ينتشرون فى المكان حتى يضبطوا حركة الزحام الهائل بأجهزة اللاسلكى التى توصل بينهم. أى زحام هذا؟ أطول طابور رأته عيناك فى موسكو يا إلهى!! هل سيقفون هكذا طويلا حتى يفوزوا فى النهاية بشراء كيس ورقى به شطيرة «هامبورجر» وبعض من بطاطس الشيبس المضلعة؟ يا الله. كم يلزمك من الوقت لتتملى الوجوه فى هذا الطابور؟ وكم ساعة سيقفون؟ هل تقبل

أنت - بصراحة - أن تضع نفسك فى هذا الموضع
ويملايساقه؟ ألن تشعر بالخجل؟ ألن تلعن نفسك بعد
بضع دقائق وتزفر: إلى الجحيم بهذا كله. ثم تذهب لتأكل
فى أى مكان سلطة البطاطس وقطعة «الكيتا» وطبق
البورش الساخن وتشعر بأن هذا أكرم وأفضل. هل
الوصم بدناءة هذه الوقفة وارد، أم أنك تبالغ فى رؤية
الأمر من زاويتك البعيدة ووقفك المتفرجة من طرف
الميدان؟ لا بد لك من تأمل الوجوه لعلك تقف على بعض من
أسباب الجانب الآخر. وتدور تدور مع الالتفاف الهائل
للطابور حول محيط الميدان كله. تدور وتدور بعينيك فى
الوجوه وتود أن تسأل. لكنك تخجل من أن تكون جارحاً
وتكتفى بالتملى، وجوه راسخة السطوح ووجوه مشوبة
بحمرة لا تستطيع أن تفهم كنهها، غبطة هذه أم خجل؟
تحاول أن تعبر الحدقات إلى العمق لكنك تتحير فى
الصفاء الملون للعيون التى تبادلك التملى ضاحكة أو
منفلتة. أنت تفهم نوازع الصغار المولعين بالتجريب فى كل
شئ وفى كل الدينا وإلى أى حد. لكنك لا تفهم مبررات

الكبار لمكابدة ذلك. وتتعب من الدوران ومن محاولات
الاقتحام هذه فتقرر الابتعاد. تمضى ولا تدرى لماذا يظل
ذلك الحرف الملتبس «م» على خلفية من العلم الأحمر وفي
بداية اسم «مادكونالد» معلقاً في أفق ذاكرتك ويتلوى عليه
امتداد ذلك الطابور. كأنك تمزج - لاشعورياً - بين
منظرين على شاشة ذهنك.

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

هُم

تلمحه - كَأَنَّكَ ترى بعينين غامضتين فى مؤخر رأسك
 - بينما تتأهب للاستقرار داخل الترولى باص رقم ٨،
 فتقفز عائداً إلى الرصيف قبل أن تتغلق الأبواب وينطلق
 الترولى. فأنت تعثر على مثله أخيراً، ولا تريد أن تُفقد
 الفرصة. وتتجه نحوه وسط طابور المتزاحمين أمام محل
 عطور «سوار دو بارى» فى شارع «جوركى»
 تتذكر وأنت تقترب منه، هذه المرة التى تساءلت فيها -
 وسط جمع من العرب والسوقيين الأصدقاء - عن سر
 تكاثر اليهود على أقسام الاستشراق عامة واللغة العربية
 خاصة، ومن سعيهم المتوارى للتعرف (علينا). وتشابكت
 إجابات كثيرة. لكن الذى أثار اهتمامك أكثر هو هذه

الإجابة عن أنهم فى البُعد الأعْمَق يريدون التعرف على صور قريبة من ذواتهم البعيدة التى انشقوا عنها.. ساميون آخر. ولعل فى هذا بعض من فضولك الشديد تجاههم.

نعم، عليك أن تعترف بوسواسك هذا، فما من مرة اقتربت فيها أو اقترب منك سوفيتى إلا وسألت نفسك عما إذا كان يهودياً أم لا. وتضحك من نفسك وأنت تحاول وضع منهج فراسى «فزيو جنومونى» للتعرف عليهم من مجرد هيئاتهم الخارجية التى تشبهنا فى السُمرة التى تخالط البياض وسواد لون الشعر والعيون غالباً.. ترسم خطأً أفقياً يبدأ تحت منبت الأذن وتمده عبر الوجه لترى إذا ما كانت الأنف تقطعه أم لا، وتتنظر إلى دكنة الحواجب، امتلاً الخاصرة، والقصر النسبى للسيقان مقارنة مع الجذوع، ثم هذه التركيبية الاكتئابية لبدن كبير البطن وصغير الأيادى. وتضحك لأنك لم تخرج من هذا كله إلا بتعميق تيهك عنهم، وتوتير فضولك أكثر حتى أنك تقفز قفزاً من الترولى باص، ناسياً تماماً ما كنت متجهاً

إليه.. لتتأمل واحداً يعلن على الملأ أنه يهودى.
 لم يكن يعلن عن اليهودية فقط، بل كان يعلن عن أشياء
 كثيرة فى وقت واحد غير ملائمه (واكسسواراته).. بذقه
 الصيفية الغامضة اللماعة طويلة السترة حتى الركبتين،
 ونجمة داوود المعلقة فى سلسلة ذهبية محبوكة على عنقه
 ووسطها فص ماسى، ثم (بادجات) مكررة لعلم أمريكا
 وعلم اسرائيل على صدر سترته. ولم يكن فيه من منهجك
 «الفيزيوجنومونى» ولا علامة واحدة. فهو أشبه برياضى
 رفع الأثقال الأوربيين من الأوزان المتوسطة: متوسط
 الطول ومشدود الامتلاء وتبدو يداه كبيرتين وثقيلتين. ولأنك
 كنت خارج الطابور فقد استطعت أن تتبين كونه خارج
 الطابور وداخله فى نفس الوقت!

كان يدخل فى الطابور ويخرج منه ثم يعود إلى مكان
 آخر فيه محمياً بنوع ثقيل من الثقة بالنفس وعدم
 الاكتراث بالآخرين. ثم بدأت تتبين الخطوط السرية التى
 تربط بين وجوده ووجود شبان آخرين ذوى ملامح روسية
 خالصة.. كانوا أصحاب ومتعلمين ويتناشرون فى المكان

على أبعاد محدودة. كانت لهم قصصات شعور وملابس
«الهوليغانز» «الموتوسيكيستس» النافرة مما أخافك.
لكنك لم تنصرف إذ كان فضولك أكبر من خوفك. ورحت
تتأمله.

تشعر نحوه بكراهية تحاول أن تتعقب مصدرها، لعلك
تعيد النظر ولا يميل ميزانك ناحية الموروث والدراج. لكن
الكراهية تجتاحك نحو صلافته.. فهو من «هنا»، ويتبجح
بأنه ينتمى إلى «هناك»، ثم إنه «هنا» يفسد ويخرب. إنه
يعيد شراء العطور من المشتريين الذين لديهم «بطاقات»،
ياغراء السعر الأعلى، ويثقل الإلحاح، بل ويتنوع من
التهديد المضمّر. يعيد احتكار العطور التي باعها باريس
لموسكو بالذهب والكافيار وخشب الحور، ليطرحها فيما
بعد بالسعر الذي يحدده. ولا بد أنه يغير ثروة روبيلاته
المتراكمة بدولارات السوق السوداء تأهباً لتهريبها عند
الخروج. إلى أين؟ إلى إسرائيل؟

نتأمل حراكة الواثق الممزق لانتظام الطابور وظلال
مساوماته الثقيلة والإلحاح، ثم نجاحه في الوصول أخيراً

إلى هذه الصفقات. وتكرهه. تفكر فى أن هذا بالضبط هو من سيذهب إلى إسرائيل ويرتدى الذى العسكرى المرقش المحبوك ويتيه برشاشة «العوزى». وفى لحظة من لحظات النفوس الميتة سيدير عشرة من العمال الفلسطينيين المتعبين العزل نحو جدار فى تل أبيب ويطلق عليهم النار مثلما أذيع عن أحدهم أمس. ولعله لن يكون فى حاجة إلى ادعاء الجنون فثمة حكومة ما ستدعى عنه ذلك فى إسرائيل. تكرهه. أنت تكرهه لدرجة خروجك عن سياقك المسالم والوقوف عند جحيم الرغبة فى استخدام سكين أو إطلاق رصاصة. وتتخيل دفاعك عن نفسك لو حدث هذا. دفاعك عن الهبوط درجة للثأر من أقصى حضيض الانحطاط. وهل هناك أخط من ملحد يتسريل ببعض من كتاب قديم لينال «امتياز» أحد أبناء «شعب الله المختار» ويقتل الآخرين «الكلاب والحمير» دون أن يهتز فى قلبه وتر. هل هناك أخط؟ تتساءل طافحاً بالكراهية نحوه. وتفاجأ بالتفاته إليك.

تكتشف وهو يقترب منك ببطء داهم بينما تتحرك

صوبك أيضاً ظلاله الثقيلة فى هيئات الموتوسيكيستز والهوليجانز.. تكتشف أنك لا تصلح أبداً لأن تكون قاتلاً، بينما أنت مرشح بجدارة لأن تكون قتيلاً. قتيلاً بكل ملابس الأوتار الانسانية التى مازلت ترتعش فى قلبك. فأنت لن تبادر أبدا بإراقة دم حتى من يتأهب لقتلك. وما هو أجسك عن أن تكون قاتلاً إلا أوهام يائسة. يأس الكائنات الأليفة الخرساء التى تعض عندما يجتاحها ألم ساحق تعجز عن رده أو حتى مجرد التعبير عنه. تعض ربما لكنها لا تفترس أبداً. وتطبق عليك حلقتهم فوق رصيف شارع «جوركى»، فى قلب «موسكو»، وعلى مشهد من أسوار «الكريملين» وأبراجه وقبابه. تطبق الحلقة حتى لا ترى حولك إلا أجساداً فارعة مفتولة وهو بينها يبادئك واضعاً يده الثقيلة على كتفك: «لماذا تنظر إلى طويلاً.. هل أعجبك؟»

- «بل لأنك - بالضبط لا تعجبني»، قلتها وأنت تبذل أقصى الطاقة لستر ارتعاشك. فقد كنت خائفاً. تشعر بانفراد أليم فى قلب العاصمة الهائلة التى كانت صديقة.

وتشعر بالعطف على نفسك لدرجة الاستوحاش العطف على جسمك الصغير المحاط بهذه الحيطان العالية من اللحم الأصم. كنت خائفاً لكنك فى أعماقك لم تجبن. قررت أنك ستدافع عن كرامة جسّدك الصغير هذا بأقصى ما تستطيعه من توحش. وعندما جاعتك إجابته: «لا أعجبك.. لكنك تعجبني. أمريكى لاتينى أنت؟» لم تنتبه إلى الخل الملفت فى حدسه، أو لعله تعمد ذلك. لقد كنت متسغرقاً فى التحفز للذود عن كرامة حجمك المتواضع. وضربت يده الثقيلة التى راحت تتحسس ذقنك وعنقك بإيحاءات سافلة. كنت تفكر كيف ستضرب بقدمك رداً على أول ضربة يد عندما فوجئت بانكسار الطوق وظهور عجوز لم تغادره العافية يشدك بعيداً: «تعال.. تعال.. لماذا تضيّع نفسك هنا.. تعال».

تبتعد مع العجوز إنها لفته حفظت لك ما يمكن من ماء وجهك. لقد رددت فى حدود ما وجه إليك. لكن لو أن الأمر استطال، هل كنت تستطيع تسديد الحساب على الفور؟ تتساءل فى نفسك، وتشعر بالامتنان للرجل العجوز إلى

جوارك. تبدى له ذلك فينطلق فى حديث مكرر عن فساد الأجيال الجديدة وضياعها. وتحاول أن تلفت نظره إلى هوية زعيمهم هذا أمام محل «سوار دو بارى».. تقول: «وهذا .. يُعلق نجمة سداسية أريضا». فيقول لك بابتسامة حزينة : «يُغلّق .. يعلق». فى هذه اللحظة تكتشف وأنت تنظر إليه أن بياضه يخالطه سمرة.. حواجبه كثيفة وعميقة الدكنة رغم الشيب فى رأسه وعيناه سوداوان «يشبهنا» - تقول فى نفسك ذلك، وترتبك وأنت تودعه أمام مدخل نفق المترو.

الحرس

تترك أكبر متاجر العاصمة «جوم» .. السوق المغطى
الكبير بطوابق العديدة ودرجه الصاعد والهابط وجسوره
المعلقة بين الردهات والطوابق. فى ذهتك بقايا صور
الأرفف الخالة والطوابير الطويلة على شئ ما يعرضونه
أقل قبحاً من الأحذية الغليظة والمعاطف الثقيلة الخشنة.
لقد كانت هناك أشياء جميلة منذ عام ونصف فقط. فقط.
فأين ذهبت ؟ ترك هذا كله خلف ظهرك وأنت تتهياً
للدخول فى أجمل ساحة فى العالم. هكذا تحبها. الساحة
الحمراء الفسيحة كما لم شهد أنفساحاً على هذا النحو
أبداً. الأرض المبلطة بالصخور الصقيلة السوداء وهى
تلمع بالبلل. توشك أن تبدو محدبة لفرط اتساعها فتذكرك
باستدارة الأرض. أسوار الكريملين الصفراء الكريمة

هنا والأبنية الراسخة العتيقة ذات الطلاء الطوبى الأحمر العميق هناك. إلى أى حد تحب هذا المكان الذى عندما تقف على أرضه تحس بأنك كائن عال فى وجود جميل وكعادتك النشوى تستدير لتتوقف مواجهاً بكل كيائك كاتدرائية «قاسيلى» . يا الله. فى كل مرة تنتقل بنظرة واحدة لهذه الأعجوبة الملونة إلى عالم خارج هذا العالم أو فى داخله. تحس أنك تتنفس فى عالم الحواديت السحرية هذه النمنمة الهائلة والغنى الخرافى لألوان القباب والزخارف تنفض رأسك غير مصدق لحقيقة صحوك فى هذا المنظر وتستدير بتلكو كما فى كل مرة لتواصل طريقك. تقاوم هذا الجذب السحرى لزخارف هذه الأعجوبة الملونة فتحذر أن تلتفت وراءك وأنت تمضى فجأة يملؤك شعور بالرتاء وبالتعجب وأنت تقترب من واجهة الضريح ذى الرخام الوردى الداكن. تقرأ من بعيد تلك الحروف الكبيرة التى تكون اسم «لينين» وتلمح الحارسين الواقفين بكامل أبهتهما العسكرية على جانبي الباب المعدنى الموصود. ساكنين تماماً مثل سلاحهما

الساكن تحت قبضتيهما. ويموازية الساق المشدودة يقف السلاح على الأرض، ثمّة نفر قليل يطلون على المنظر الساكن فى سكون. ولا طابور للزوار هناك. فقط طابور الحرس المناوب وهو يتهياً للبروغ من تحت القوس الهائل لأحد مداخل سور الكريملين البعيدة. هل هذا الرجل مازال نائماً حقاً هناك. بجسده المحنط وحلته الكاملة القديمة؟ لكم تغيرت الدنيا ويمر على الصورة فى ذهنك قطار من الصور عجيب. صورة غلاف مجلة جنس غربية وبه جمع بنات سوقيتيات بنهود عارية وأرداف مكشوفة والخلفية صورة للبنين بقبعته العمالية الشهيرة وصوت المعلّقة فى برنامج التليفزيون السوفييتى «نظرة» .. يصف فى حماس اعتراف الغرب، أخيراً، بالجمال السوفييتى. ويتوالى طابور النهود العارية والأرداف. ولا تستطيع أن توقف فى ذهنك صوراً أخري تجى فى هذا القطار. رأيتها فى شاشة التليفزيون السوفييتى بالأمس. الفتاة التى ذُبحت وتم دفنها فى الثلج بعد الاستيلاء على مائتين من الروبلات كانت معها. وصورة الشاب الصغير الذى

فعل بها ذلك. ثم صورة عرض الأزياء الفاخرة الراقص
وصورة التقاتل بالأيدي بين فرقاء سياسيين، وتمضى
خارجاً من الميدان الأحمر فى حالة من الشرود. أنت لم
تحترم «الأدلجة» أبداً مكثت عمرك تحتفظ بفضيلة الشك
فى كل ايدىولوجيا تدعى الشمول. لكنك الان تضيف إلى
شكك شك جديد. شك فى شمولية الغياب لكل
الأيديولوجيا وتخرج من الميدان الأحمر فتحس باستغراب
وكأنك تدخل فى عالم آخر.

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

الفهرس

٧	مقدمة
١٧	(١) - فصول تشيرنوبيل الأربعة
١٩	- الربيع
٢٣	- لحظات الربيع
٧٥	- الصيف
٨١	- لحظات الصيف
١٠٣	- الخريف
١٠٩	- لحظات الخريف
١٢٧	- الشتاء
١٣٣	- لحظات الشتاء
١٤٥	(٢) طوابير موسكو ٩٠

صدر مؤخر عن (أصوات أدبية)

- ٢٠٢ - بالأصابع التي كالشط شعر : محمد سليمان
- ٢٠٣ - كويلا قصص : يحيى مختار
- ٢٠٤ - الشرنقة قصص : سليمان فياض
- ٢٠٥ - مدينة اللذة رواية : عزت القمحاوي
- ٢٠٦ - كتاب الأرض والدم .. شعر : محمد عفيفي مطر
- ٢٠٧ - طراوة العين قصص : نبيل نعوم
- ٢٠٨ - نخب اكتمال القمر قصص : ابتهاج سالم
- ٢٠٩ - طلل النار قصص : يوسف أبورية
- ٢١٠ - الواحد الواحدة شعر : حلمي سالم
- ٢١١ - فوق الحياة قليلا رواية : سيد الوكيل
- ٢١٢ - برجالاتك قصص : أمين ريان
- ٢١٣ - وقائع استشهاد اسماعيل النوحى : رواية : سمير ندا
- ٢١٤ - فخاريات شعر : اسامة شهاب
- ٢١٥ - رجف الذاكرة قصص : رضا امام
- ٢١٦ - تفاصيل وتفاصيل أخرى شعر : ابراهيم داود

- ٢١٧ - هي وخادمتها قصص : هناء عطية
- ٢١٨ - كتاب العشق شعر : عبد الدايم الشاذلى
- ٢١٩ - حكايات جار النبى الحلو..... قصص : جار النبى الحلو
- ٢٢٠ - الحنين شعر : عبد العظيم ناجى
- ٢٢١ - نسيم الصبا..... قصص : زينب صادق
- ٢٢٢ - بندق قصص : محمود حنفى
- ٢٢٣ - الغالب والمغلوب..... رواية : مصطفى الأسمر
- ٢٢٤ - مساحات للتعب شعر : سمير عبد الباقي
- ٢٢٥ - مشتهيات رواية : سهام بدوى
- ٢٢٦ - أشعار شعر : ابراهيم رضوان
- ٢٢٧ - القابض على الجمر قصص: رفقى بدوى
- ٢٢٨ - حلاوة الروح شعر : أمين حداد
- ٢٢٩ - يونى سكس قصص: علاء البربرى
- ٢٣٠ - الأرض جحيم الخائفين شعر : حسن عقل
- ٢٣١ - حلوانى عزيز الحلو رواية : محسن يونس
- ٢٣٢ - فراديس الحوارى شعر: ابراهيم خطاب
- ٢٣٣ - مقاطع من جولة ميم الملة قصص: محمد حافظ
- ٢٣٤ - هذا دمي وهذا قرنفلى شعر : وليد منير

- ٢٣٥- توتة مائلة على نهر قصص: محمد ابراهيم طه
- ٢٣٦- معلقة بشص شعر : فريد أبو سعدة
- ٢٣٧- موسم الرياح رواية : سمير المنزلاوى
- ٢٣٨- كيف طاوعك الرحيل؟ شعر : مختار النادى
- ٢٣٩- تحولات إنسان عابر قصص : جمال زكى مقار
- ٢٤٠- خيانات ذهنية قصص : مى التلمسانى
- ٢٤١- ذهبت إلى شلال قصص: بهاء طاهر
- ٢٤٢- المصريون على الفرح قصص: نورا أمين
- ٢٤٣- تل القلزم رواية : محمد الراوى
- ٢٤٤- لحظات غرق جزيرة الحوت محمد المخزنجى

العدد القادم

- ٢٤٥- بروفات قصص : عفاف السيد
- ٢٤٦- ريحة البلاد الثانية شعر : ابراهيم سلامه

رقم الايداع : ٩٨/١٣٩٦٠

شركة الأمل للطباعة والنشر

ن : ٣٩٠٤٠٩٦

لقد كان مصير الكذب مريرا
جدا بالنسبة لى، لا كشخص
مفرد، ولكن كنموذج من ملايين
الحاملين الذين تطلعوا بعيون
التمنى إلى تلك الأسطورة
المنبسطة فى الشمال الشرقى من
عالمهم الجنوبي البائس. ولا أجد
شعورا يقارب شعورى فى ذلك إلا ما
أتصوره عن مشاعر «السندباد
البحرى» فى إحدى حكايات ألف
ليلة، عندما تحطمت سفينته فى
عرض البحر وسبح إلى جزيرة
رائعة تراءت له، وبعد أن عاش
هنيئاً بين ربوعها بدأت فى
التحرك وراحت تغرق إذ كانت
مجرد تكوين عارض على ظهر
حوت..

